موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب بباوي

تجسد الكلمة في محالّ ضرّاته

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة العاشرة

www.coptology.com

Coptology

ⲥⲁⲛⲱⲩ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة العاشرة

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١١

www.coptology.org

"تجسد الكلمة"

بعد مرور ستة عشر قرناً في أروقة الجامعات الأوربية،

وحوار اللاهوت والفلسفة والتاريخ واللغات

مقدمة

ماذا يدور في أروقة الجامعات؟

لم تتجاوز الكتابات العربية التي تهاجم المسيحية في عالمنا العربي، الهجوم الذي قاده فلاسفة وعلماء الاجتماع في فرنسا وألمانيا بالذات على عقائد المسيحية في القرن السابع عشر، والذي بلغ الذروة في نهاية القرن الثامن عشر، وانحسر مع بدية مدارس النقد التاريخي في القرن العشرين.

فلازلنا نسمع الاتهام الأوربي القديم بأن المسيحية عندما انتشرت بين الشعوب الناطقة باليونانية أخذت من *Myth* أساطير اليونان عقائد الثالوث، والتجسد الإلهي، والصلب والقيامة.

ولقد فنَّد هذا الادعاء المؤرخ والعالم الكاثوليكي Julles Lebreton في دراسة من مجلدين صدرت باللغتين الفرنسية والإنجليزية عام ١٩٣٩م، وذلك في المجلد الأول من كتابه عن الثالوث. ويظل الاتهام – حسب لغة القانون – اتهاماً بلا دليل، ومجرد شوشرة لا طائل منها سوى محاولة بث أكبر قدر من الضباب، لعل في ظلام الضباب تختفي المسيحية التي تؤرِّق ضمائر المستعبدين للكراهية وعشاق الاستبداد وعابدي التدمير من البشر الذين يصعب عليهم لأسباب نفسية وسياسية أن يسمعوا عن تواضع ومحبة الله، وقبول المحبة الإلهية بأن تشترك في حياة الإنسان.

وقد جاء التحدي الأكبر على يد الفيلسوف الألماني فويرباخ *Feuerbach* في كتابه "جوهر المسيحية" الذي قال فيه إن كل ما جاء في اللاهوت هو إسقاط إنساني، وإن الإنسان هو الذي "خلق الله على صورته"، وليس العكس. ومنذ هذا الحين صار

هذا الكتاب هو "جدول الضرب" لكل حركات الإلحاد الأوروبية، فقد تحول اللاهوت على يديه إلى "أنثروبولوجي"، أي العلم الخاص بالإنسان. ولكن جاء اللاهوتي الألماني كارل بارت ليُعيد نشر الكتاب بمقدمة تحدَّى فيها الفكرة نفسها، وقال بأن الأنثروبولوجي لا يمكن فهمه إلاَّ من خلال اللاهوت *Anthropology must be understood as Theology* وليس العكس. فقد ضاع من الإنسان نفسه – عندما حوصر في مربع الأنثروبولوجي – البُعد الأكبر في الحياة الإنسانية، وهو ما يمكن أن نطلق عليه بلغتنا العربية "المرجعية الإلهية" التي تحتوي على أبعادٍ ثلاثة، هي:

* المطلق – * الكامل – * الخير التام.

فعندما تغيب هذه الأبعاد الثلاثة من الثقافة والفكر الإنساني، تحل عتامةٌ تدمِّر الوجود الإنساني كله، الذي يكون قد حوصر في أبعادٍ أربعة مدمِّرة، هي:

* الزمان المغلق الذي لا غاية له.

* الوجود الإنساني الخاضع لحتمية الموت

* الصراع بين أكبر قوتين في الحياة الإنسانية: الخير والشر، وهو صراعٌ دموي عرفه الإنسان الأوربي في حربين هلك فيهما ملايين البشر. وهو صراعٌ لا يمكن أن يُحل بالقانون أو بالسلاح. وقد عرفنا نحن في مصر مثل هذا الصراع في حروب منذ عام ١٩٤٨ حتى ١٩٧٣، ولا زال الأفق غامضاً يلوح فيه أكثر من نذير سوء.

هذا الصراع لا يزال يهدد مستقبل الإنسان، ولذلك لا تزال عبارة الفيلسوف كارل ياسبرز تدوِّي: "لقد غاب الماضي، والحاضر يوشك أن يغيب، ومشكلتنا الكبرى هي المستقبل الغامض الذي لا نعرف غايته".

* التقدم العلمي الذي جعل مصير الإنسان، بل والإنسانية في يد النخبة من علماء البيولوجي والكيمياء ... إلخ وهؤلاء قادرون على محو الحياة الإنسانية دون سلاح منظور، وهو سلاح الحروب الكيميائية والميكروبات. بل لم تأتِ المؤسسات العالمية مثل الأمم

المتحدة بحلول تقبلها كل الأطراف، ولا زال القانون الدولي والشرعية الدولية في حاجة إلى سلاح، وفي عبارة موجزة: "يحتاج الحق إلى المدفع"، ولكن الحق الذي يُفرض هو بذرة تمرد.

لا زلت أذكر محاضرات أستاذنا الكبير *C.H.Dodd* أستاذ العهد الجديد الذي كان يُدعى للتدريس بعد التقاعد، وبعد أن وضع كتابه: "الإنسان في خطة الله حسب العهد الجديد – *Man in God,s Design According to the New Testament, 1966*"، والكتاب هو دعوة لاكتشاف البُعد الإنساني كأساس للخطاب اللاهوتي. وقد تلاه كتابٌ آخر: *D.E.Jenkins; The Glory of Man, 1967* وهو بدوره يُطالب بوضع أساس إنساني صحيح لفهم عمل الله في التاريخ الإنساني باعتبار أن الإنسان هو محور الإعلانات الإلهية، وأن اللاهوت المسيحي هو لاهوت الإله المتجسد، أي الذي صار إنساناً (يو ١: ١٣ – ١٤)، واستعلان الله لا يمكن فهمه إلاَّ من خلال الإنسان: وجوده وحياته.

– ١ –

حقيقة العلاقة
بين اللاهوت والأنثروبولوجي

عندما توقف عبث القرن السابع عشر والثامن عشر، والذي تجلى في محاولات جمع كل الديانات في سلةٍ واحدة عندما تُرجمت الكتب الدينية للشعوب غير المسيحية، ورأى علماء التاريخ والاجتماع أن بعض أفكار ومبادئ الديانات الأخرى هي أفكار جيدة تدعو إلى الخير والسلوك الاجتماعي الفاضل، أعاد علماء الاجتماع والفلسفة النظر في الادعاء بأن الإنسان هو خالق الله على صورته ومثاله، وانفتح مجال البحث في الإنسان نفسه بظهور علم النفس على يد فرويد[١]. وجاءت دراسات أخرى بعد فرويد تؤكِّد أن ما يقال تحت اسم *Myth* ليس خرافةً أو خيالاً سبق الفكر العلمي في القرن الثاني عشر، بل هو الفكر العلمي الذي كُتب في شكل القصة؛ لأن القصة كانت هي الهيكل العظمي للثقافة القديمة، وكانت دراسة *Andrea Lang, Myth, Ritual and Religion, 1899* ونُشرت بعد ذلك دراسات كل من *Levy-Bruhe, Gerard Van der Leeuw* في عدة طبعات.

ما هو جوهر المشكلة؟

أولاً: هل يمكن أن يكون الإنسان هو كل شيء في الكون، بينما هو في حقيقة

---

(١) من المفارقات التاريخية المؤلمة أن مبادئ التحليل النفسي لفرويد نشر عام ١٨٨٢م وهو عام لا يمكن لأي مصري أن ينساه، فهو تاريخ الاحتلال البريطاني لمصر، وتحول مصر التي كانت في يوم من الأيام أقوى دولة في المنطقة، إلى مستعمرة بريطانية تخضع للتاج البريطاني.

الأمر وليد الأرض ويحيا حسب ما يقدِّمه الكون من "دعم"؟ إذا كان الإنسان قد اكتشف منذ فجر الحضارة أن هناك "بُعداً – *Dimension*" أكبر من البيئة ومن التناسل، وأن الحضارات التي نشأت في أحضان الديانات أبدعت الموسيقى والشعر والرسم والعمارة ... الخ. وأن أساطير هذه الديانات كانت هي "الإلهام" الذي حرَّك العقل والوجدان، وجعل الإنسان "يعلو" على أبعاد الزمان والمكان، ويجد لنفسه مكاناً "أعلا" من البطن والقبر، ورؤيةً أعظم من الكساء والماء والمأوى والزواج، وأنه مزج هذه كلها بسبب اعتقاده "بآلهة"، وبحياةٍ بعد الموت، فهل إذا نزع الإنسان "التدين"، هل يمكن للحضارة أن تسير إلى الأمام؟

جاء الرد حاسماً بعد نصف قرن من نظام سياسي فرض الإلحاد وبالقوة في الإتحاد السوفيتي، ولكن لم تمت المسيحية، بل ظل الإيمان بالله مثل نار تحت الرماد. وجاءت الأدبيات التي تؤكد ذلك في ظل النظام الحديدي نفسه مثل: "عنبر السرطان" و"د. زيفاجو" وغيرها، ثم المنشورات السرية للمؤمنين. لم يكن الإنسان يبحث عن حلم *Dream* بل يبحث عن حقيقة ذاته التي أُلقيت في عالم بلا "خريطة"، وبلا "بوصلة". ولم يكن الفن كافياً ولا أيضاً الشعر والمسرح، بل كما يقول الأب "أرسانيوس" الذي ظل في المعتقل أيام ستالين طوال عشرة أعوام يقاسي البرد والجوع والضرب:

* "كانت في القلب خلجاتٌ لا يمكن أن تموت".
* نبضاتٌ آتية ليس من اللحم الذي يعاني الصقيع.
* لم تكن همسات البطن الجوعى لا تعرف حتى الخبز.
* كانت دماء الجراح قد تجمدت.
* العظام تعاني من الكدمات.
* ليل المعاناة المظلم بلا شرارة نور.
* لكن صوت يسوع كنت أسمعه قوياً.

* نهر تلال الثلوج نقل كياني كله نحو حياة لا تُقهر.

* ورغم القهر والضرب والجوع وربما الموت، يسوع ربي وحياتي.

إذن، فقد جاءت الحرب العالمية الأولى وأعقبتها الثانية بأكبر صدمة للإنسان، فهو مركز الكون، ولكنه فشل وصُدم وضاعت أحلام التقدم باسم إنسانية بلا إله.

ثانياً: لم يكن الأمر هو غياب المرجعية والخريطة والبوصلة، بل غياب تحديد أو تعريف للإنسان نفسه. فلا زلت أذكر عبارة أستاذنا الراحل الكريم *McKenen*: "إن الحضارة والثقافة التي تفشل في تقديم تعريف *Definition* للإنسان، تفشل في خلق كل فرص الإبداع والتقدم. الحضارة تبدأ بالإنسان ونظرته إلى كيانه الإنساني. إذا انحطت هذه النظرة تراجع كل شيء، وإذا سمت ارتفع مع النظرة السامية كل شيء"[١].

إن ضياع البعد الإلهي في الإنسان جعل الإنسان ينحط إلى الدرجة التي يصبح معها "رقماً" فقط في المعتقلات، أو علامةً على تذكرة مرور، أو "اسماً" يحط من قدره في "الهوية". لقد مضت حقبات قديمة كان الإنسان فيها عظيماً، وكانت الأساطير – بالمعنى الحديث – هي القصة التي ترسم ملامح الحياة الإنسانية، ثم جاءت حقبات تراجَعَ فيها الإنسان، وتحصَّن في رموز الأيدولوجيات السياسية، وأصبح الانتماء "لمبدأ" أو "قيمة – *Value*" هو المحرك الأول لكل قدرات الإنسان، ولكن جاءت الصدمات بيد البشر أنفسهم، وجاءت الصراعات لتبحث عن "قيمة – *Value*" للإنسان تدفع الإنسان إلى الأمام، إلى ما هو أعظم، ولكن لم يحدث هذا على أرض الواقع نفسه.

---

(١) لقد سمعت هذه العبارات في عام ١٩٦٦م عندما كنا ندرس الإلحاد الأوروبي الذي كنت أود أن أقدم دراسة وافية عنه، ولكن مطران كفر الشيخ ودمياط استطاع بدهاء سيده أن يغلق أول مركز للإشعاع الفكري في كلية اللاهوت – فرع طنطا. وسار يصول ويجول يعيِّرني بأنني درست الإلحاد مع ملحدين، كأن أي طالب في أي جامعة له حق اختيار أساتذته، أو مقرراته!!! ولكن للأسف لم يدرك شعب الكنيسة في كفر الشيخ ودمياط حقيقة هذه اللعبة السمجة.

من فوق أم من أسفل، وخيال د. يوسف زيدان:

اعتبر د. يوسف زيدان[١] أن التجسد هو إصلاحٌ للإنسان من فوق، بينما هو يريد إصلاحاً من أسفل. وإن كان الوحي والتنزيل هو من فوق "من عند الله"، فالتجسد هو أن يصبح ما هو فوق، وما هو أسفل متحداً في شخص يسوع المسيح.

ولعل أبشع الأكاذيب، هي تلك التي تقال باسم التاريخ القديم، خصوصاً وأن مدونات التاريخ القديم ليست في يد عامة الناس، بل والمصيبة الأكبر لم يدرسها من يتكلم باسم التاريخ القديم أو الحضارات القديمة – الهللينية – الرومانية – المصرية القديمة – والبابلية وغيرها. فهذه الحضارات القديمة لم تفصل بين السماء والأرض؛ لأن مَن فصل السماء عن الأرض هو المدرسة الأوربية التي شاعت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وعُرفت باسم *Deism* وكان أشهر من حاول تأصيل أفكار هذه المدرسة هو *John Locke* فالله فوق، والإنسان عليه أن يرتب حياته ومصيره حسب ما تصل إليه العلوم التجريبية.

المجالات الحقيقية التي تعطي الإنسان نوعاً من الشركة مع الله

قد يبدو للقارئ أن الوحي في اليهودية والمسيحية هو قرين التنزيل في الإسلام، وإنصافاً للدكتور زيدان، هو لا يعتقد بذلك، وإلاَّ ما هو سر الهجوم العنيف على "الإله التوراتي"، وهو التعبير الذي ورد بوفرة في كتابه "اللاهوت العربي"، وهو كما ذكرنا من قبل في موضع آخر[٢] أنه ليس لاهوتاً وليس عربياً؛ لأن "اللاهوت" كلمة آرامية سريانية غير معروفة في تراثنا العربي الإسلامي، ولأن "العربي" الذي نزل بلسان عربي مبين، هو القرآن،

---

(١) راجع أوهام المصريين، المخلص الذي لا يخلص، مقال منشور بجريدة المصري اليوم بتاريخ ٢٠١٠/٩/١٥.

(٢) راجع: قراءة نقدية مسيحية لكتاب اللاهوت العربي، محاضرة من جزئين منشورة على موقع: www coptology.com

وهو ليس كتاب لاهوت.

لكن لنضع أمام القارئ الاحتمالات التالية، وهي واردة في ملفات التاريخ اليهودي والمسيحي، وسنترك ملفات الإسلام لعلماء الإسلام.

الوحي هو حديثٌ / كلامٌ ينقله روح الرب. وسوف نترك الفرق بين الروح القدس، روح الله في اليهودية والمسيحية، و"جبريل" في الإسلام، الملاك الذي نقل القرآن إلى نبي الإسلام.

لقد امتاز الوحي اليهودي / المسيحي بثلاثة أشياء غير معروفة في التاريخ أو في التراث الإسلامي:

أولاً: كان الوحي هو تسجيل إعلان الله عن ذاته لإبراهيم بالرؤيا المباشرة، وبالحديث، وبالوعد والعهد. هذه العناصر الثلاثة لا يمكن فصلها عن شخص إبراهيم وعن تاريخ العهد القديم نفسه. وارتبط النص، أي الكلام الصادر عن الله بالأحداث التاريخية، أي دعوة الله لإبراهيم، وميلاد اسحق، والوعد بالبركة، ولم يترك الوحي الحياة الشخصية لإبراهيم أو غيره بدون تسجيل.

خصوصية اليهودية والمسيحية تتبدى في أن الله هو "خليلٌ" أو صديقٌ للخطاة، وأن دعوة الله ليست للأتقياء فقط، ولا لمن هو بلا خطية، بل للخطاة من البشر. هذه هي حقيقة الرحمة وغنى صلاح الله، ولذلك لا تعرف اليهودية "عصمة الأنبياء". وهي ليست معروفة أيضاً في المسيحية، بل لا مجال لها أساساً. فالحياة الأخلاقية لها قيمتها الكبرى، ولكن ليس لدى الله. الله لا يُعامل الإنسان الصالح بالصلاح والخاطئ بالعداوة، بل يعامل الإنسان على أنه الخالق الذي له مشيئةً وهدفاً من خلق الإنسان، ويعود بالإنسان نحو الصلاح والحق.

ثانياً: لم يكن الوحي إعلاناً عن شريعة إلهية، بل تمثَّلت البداية في الدعوة للإيمان، ولذلك سبقت دعوة إبراهيم شريعة موسى بعدة سنوات حسبها الرسول بولس

حسب التسليم اليهودي نفسه بـ ٤٠٠ سنة. إن أساس العلاقة مع الله هو الدعوة الإلهية، ولذلك لم يكن لدى إبراهيم شريعة، بل جاءت الشريعة بعد أن تحول الإيمان إلى حياة وتاريخ، أي انتقل من الفرد إلى الجماعة، فالشريعةُ خاصةٌ بتنظيم الجماعة، أي الأسباط الاثنى عشر، وهؤلاء كانوا يعرفون معرفةً تامةً أن دعوة الله وعهد الله ليس معهم هم وحدهم، بل لكل الشعوب، أي "الأمم"، فلم تكن هناك – حتى بعد تكوين "بني إسرائيل" – دعوةٌ خاصةٌ لشعبٍ خاص، بل هي بركةُ الله لنسل إبراهيم، وهؤلاء ليسوا هم اليهود وحدهم؛ لأن نص سفر التكوين قاطع: "وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ" (تك ٢٢: ١٨، ٢٦: ٤، ٢٨: ١٤). ولأن دعوة الله سبقت الشريعة، فقد تلازم مع هذه الدعوة ظهور الأنبياء، ليس لدعوة البشر إلى الشريعة، بل إلى الحياة في انتظار تحقيق مواعيد الله التي لم ترتبط بالمرة بحفظ الشريعة، بل بقصد الله نفسه وإرادته في أن يعلن صلاحه ومحبته.

ثالثاً: ولعل أهم ما يقال عن ملامح العهد القديم الأساسية هو أن التاريخ لم يبدأ بالشريعة ولن ينتهي بالشريعة، بل يبدأ بخلق الإنسان وبالوعد بالخلاص وبالعهد، ثم تأتي الشريعة ويستمر التاريخ، ليس كسجل لحفظ الشريعة، بل كسجلٍ مفتوح في انتظار إعلان الله عن نفسه، وعن إرادته، وعن مصير الشعب الذي يؤمن به، وعن مستقبله. وهو هنا لا يقدم البرنامج السياسي الذي ظهر بعد ذلك في الحركة الصهيونية، والتي من خلال دعوتها السياسية، يقرأ بعض الذين يكتبون عندنا، العهد القديم كما لو كان "دستوراً" خاصاً بالصهيونية، وهو ليس كذلك بالمرة.

إذن يبقى السؤال مطروحاً: **ما هي مجالات معرفة الإنسان بالله؟**

والجواب هو أننا لا يمكن أن نهمل تاريخ السابقين، ولا أن نفصل اختبار الإنسان عن اللغة وعن الثقافة وعن المحورين الأساسيين في الحياة الإنسانية برمتها:

المحور الأول: هو آمال الإنسان وطموحات الإنسان ورجاء الإنسان. لذلك

كان مدهشاً حقاً أن يشذ ارنست بلوك *Ernst Block* عن الاتجاه الماركسي السائد في ألمانيا الشرقية (في ذلك الوقت)[١] لكي يعيد إلى الأذهان ضرورة استعادة الرجاء *Hope* ليس في حل أزمات الإنسان الاقتصادية وتوزيع الدخل القومي وحل مشكلة الفقر والبطالة، بل بأن يكون للإنسان رجاء *Hope* في علاقات إنسانية سامية تعلو على ما تحقق من انجازات، وتدفعه إلى التقدم العلمي. وقد رفض *Block* محاصرة الفنون باسم الماركسية؛ لأن الفن يظل هو النافذة التي تدخل منها الحرية، ويظل هو النور الذي يدفع الإنسان إلى أن يبحث عن طرق إنسانية أفضل لحياة إنسانية. من هنا بات من الحتمي أن نعيد قراءة العهد القديم من خلال التعليم النبوي *Prophetic* وهو أن الشريعة هي حدٌّ وُضِعَ "لمحاربة الشر"، وأن هذا الحد ليس هو سلاح التقدم، وأن التقدم الحقيقي ليس في حل الأزمات، رغم أهمية هذه الحلول، بل هو في تكوين العلاقات الإنسانية التي لا يحاصرها الخوف من العقاب، بل المحوطة بمحبة الفضائل والسلوك القويم من أجل حياة إنسانية أفضل.

والمحور الثاني: هو مرجعية الإنسان، أي نظرة الإنسان إلى ذاته. مع الأخذ في الاعتبار أن انتساب الإنسان إلى "العرق" أو إلى "الجماعة" أو إلى "تاريخ قديم" لا يحقق شيئاً، بل يحفظ الإنسان في مربع الماضي وحده. ولذلك عندما جاء سفر التكوين ليقول: إن الإنسان هو صورة الله ومثاله (راجع تك ١: ٢٦)[٢] – وبالمناسبة هو تعريفٌ لم يرد في القرآن، ولكنه دخل إلى الأدبيات الإسلامية عن طريق الشيعة ورجال التصوف وحدهم – فقد أعطى هذه التعريف للإنسان نفسه حرية التطلع إلى "أعلى" وإلى الانتساب لله الخالق ليعرف هو أن الإنسان هو سيد الكون ومدبره، بل هو إله الكون

---

[١]) Ernst Block: Prinzip Hoffnung, 1960.(

(٢) "وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ".

حسبما ذكر المزمور الثامن: "من هو الإنسان حتى تذكره، وضعته قليلاً عن إلوهيم (حسب العبرانية)"، ولكن جاءت الترجمة السبعينية لتقول: "وضعته قليلاً عن الملائكة". والفرق واضح، ولكن خلف هذه الترجمة يجيء التعليم اليهودي القديم، وهو أن الملائكة هم آلهة الكون وحراس الأفلاك والأجرام السماوية، وأنهم هم الذين يخدمون تعاقب الفصول ونزول الأمطار ... فالإنسان أقل قليلاً من هؤلاء؛ لأنه ليس مسئولاً عن حفظ الكون، بل عن "العمل" في الأرض، فهو لا يخطط مسار النجوم والأفلاك، بل هو الذي "يزرع" و"يحصد" لكي يحيا في الأرض "صورة الله".

الإدعاء بأن خلق الإنسان صورة الله ومثاله هو نقلٌ عن الوثنية

وُلدت هذه الفكرة في رؤوس علماء الاجتماع في القرن السابع عشر، وبعد أن تم نقل التراث الديني القديم: المصري والعبراني والهندي والفارسي .. إلخ إلى اللغات الأوروبية. فقد ظهر فيما بينها قاسمٌ مشترك، وهو امتزاج حياة البشر بالآلهة، وهنا طرح العلماء عدة أسئلة لا يمكن الإجابة عليها بشكل قاطع:

١– هل كان هناك تراث روحي عالمي قديم قبل انقسام البشر إلى أعراق وديانات ولغات، والتراث المقصود هنا هو التراث المنحدر من آدم نفسه، والذي تبدو بعض ملامحه في قصة إبراهيم وفي سفر أيوب الذي لم يكن عبرانياً، بل من نسل آدوم؟ وكان علماء اليهود هم أول من عبَّروا عن دهشتهم من وجود كتاب غير عبراني في العهد القديم، ولكن حتى لا يقع أحد فريسةً للدعوة الصهيونية، نقول ما أكثر الأشخاص الذين لم يكن لهم صلة بالعبرانيين، وأول هؤلاء هو إبراهيم نفسه الذي جاء من "حاران" أي من العراق. فاليهودية تعود إلى يعقوب وليس إلى إبراهيم[١].

---

(١) راجع في ذلك دراسة الأب بولس طرزي – مقدمات العهد القديم – معهد فلاديمير المجلد الأول بالانجليزية. ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب تُرجم إلى اللغة العربية ونشرته منشورات النور بلبنان ١٩٩٩.

٢– هل سبقت الوثنية التوحيد، أم أن التوحيد كان هو الأصل الذي تفرَّعت منه الوثنية؟ وهنا يجب أن نكون على يقين من أن دعوة عبادة الإله الواحد هي لُب وجوهر العهد القديم، وهو ينقل إلينا التوحيد كسابقٍ على ظهور الوثنية، وأن الوثنية ظهرت في مرحلة لاحقة لا يمكن تحديدها بدقة تاريخية، ولكن الثابت هو أن الإشارات إلى الوثنية في سفر التكوين ليست أقدم من التوحيد، وبالتالي إذ سبق التوحيد الوثنية، أصبح من الضروري أن نفهم أن "صورة الله ومثاله" (تك ١: ٢٦) جاءت في وقت كان فيه البشر يعبدون الحيوانات والأصنام في مصر الفرعونية وبلاد العالم القديم. ومع ذلك جاءت هذه العبارة، وبعدها تاريخ طويل في معاداة الوثنية. وما قصة الخروج من مصر إلاَّ صراعاً بين التوحيد والوثنية، لا بين شعبين، ولا هي محاولة للنيل من مصر لحساب بني يعقوب؛ لأن مصر تنال بركةً[١]، بل وإليها يأتي الرب نفسه حسب النبوة[٢]، ولكنها في نفس الوقت هي القوة العسكرية التي تخدم الوثنية. فهذه ليست منطقة صراعات عرقية، وإنما صراع على مستوى حرب الإله الحقيقي مع آلهة الأمم (راجع مزمور ١٣٥)[٣]. فإذا كان انتساب الإنسان إلى الله هو أقدم من الوثنية، بات من الضروري أن نؤكد أن الإنسان بدأ مسيرته مع الله بالتوحيد، وبعلاقة يمكن أن نفهم لماذا قامت على الإعلانات الإلهية.

وعلى ذلك، فإن عدم وجود تاريخ كامل الفصول، يجعل المرجع الوحيد الذين بين أيدينا هو العهد القديم نفسه، وهو خيرُ شاهدٍ على أن الإيمان بإلهٍ خالقٍ، سبق

---

(١) "مبارك شعبي مصر" (أش.١٩: ٢٥).

(٢) "وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ مِصْرَ: هُوَذَا الرَّبُّ رَاكِبٌ عَلَى سَحَابَةٍ سَرِيعَةٍ وَقَادِمٌ إِلَى مِصْرَ، فَتَرْتَجِفُ أَوْثَانُ مِصْرَ مِنْ وَجْهِهِ، وَيَذُوبُ قَلْبُ مِصْرَ دَاخِلَهَا" (أش ١٩: ١).

(٣) "أَصْنَام الأمَم فضَّةٌ وَذَهَبٌ، عَمَل أَيْدي النَّاس. لَهَا أَفْوَاهٌ وَلاَ تَتَكَلَّم. لَهَا أَعْيُنٌ وَلاَ تبْصر. لَهَا آذَانٌ وَلاَ تَسْمَع. كَذلكَ لَيْسَ فِي أَفْوَاههَا نَفَسٌ! مثْلَهَا يَكون صَانعوهَا، وَكلّ مَنْ يَتَّكل عَلَيْهَا. يَا بَيْتَ إِسْرَائيلَ، بَارِكوا الرَّبَّ. يَا بَيْتَ هَارونَ، بَارِكوا الرَّبَّ. يَا بَيْتَ لاَوي، بَارِكوا الرَّبَّ. يَا خَائفي الرَّبّ، بَارِكوا الرَّبَّ. مبَارَكٌ الرَّبّ منْ صهْيَوْنَ، السَّاكن في أورشَليمَ. هَلّلويَا" (مز ١٣٥: ١٥ – ٢١).

الوثنية، وظل حتى بعد انتشار الوثنية متغلغلاً حسب شهادة المصادر القديمة التي وصلتنا، والتي ندين للأستاذ السابق بجامعة برنستون *J. B. PRITCHARD* بنشرها في مجلد كبير[١].

حلقات الهوية الإنسانية المختلفة:

* عندما يحدد الإنسان هويته بأنه سليل الحيوانات، ينحط السلوك الاجتماعي، وبشكل خاص في العلاقات الإنسانية، لا سيما الزواج والأسرة والمعاملات اليومية.

* لكن التسلسل العرقي والانتساب للأب الأول، خلق التضامن الاجتماعي، وكوَّن الأسباط والقبائل، وخلق نظاماً قانونياً وشريعةً موروثةً أحكمت النطاق، بل الحصار على المجتمع، وفرضت عليه الجمود، بل حتى العبادة نفسها "جُمِّدت – *Fro*" بالشريعة.

* لكن ما نلاحظه في أغلب النصوص القديمة الخاصة بالإنسان القديم، أي تلك التي نشرها *Pritchard* أن الإنسان المتدين، كان يؤمن بخلق العالم، وكان لديه قصصٌ عن الخلق، وعن الحياة على الأرض، وعن ما بعد الموت. كان يعرف خالقه بأسماءٍ متنوعةٍ، وذلك من خلال القصص المختلفة حسب المكان والزمان والعشيرة. ولكنه بشكل عام كان دائماً يتطلع إلى آفاق ما بعد الموت، وكان دليل الإيمان بالخلود ليس فقط التحنيط، بل أدوات الصيد والحياة اليومية التي تُدفن مع الميت. ولم يكن الدفن مجرد إكرام للموتى، بل كان تأهيلاً للحياة بعد الموت، حياة الخلود.

الهوية الإنسانية حسب الكتاب المقدس:

الإنسان هو صورة الله (تك ١: ٢٦)، وخلف هذه العبارة القصيرة نجد التراث النبوي الذي يؤكد:

---

(١) راجع الطبعة الثالثة التي نشرتها جامعة برنستون في عام ١٩٦٩:
J. B. PRITCHARD, Ancient Near Eastern Texts: Relating to the OLD TESTAMENT.

* معرفة الإنسان بالله رغم السقوط الذي حدث في جنة عدن، وهكذا سمعنا عن أخنوخ. وما شخصية إبراهيم إلاَّ مثالاً عالياً للإيمان جعله الرسول بولس نفسه في رومية أصحاح ٤ مثالاً لدعوة الأمم، بل وعفة يوسف الذي لم يكن لديه وصية مكتوبة تقول: "لا تزن"، ولكن كانت الوصية في الضمير تدفعه إلى أن لا يصبح ضحية الزنا.

* لكن أهم مقومات الصورة الإلهية هو سُكنى روح الحكمة في وجدان وقلب الإنسان، روح الرب أو روح الحكمة الذي يعمل في كل الخليقة وفي كل مجالات الحياة حسب الإصحاح الثامن من سفر الأمثال. إن ما غاب عن بعض مدارس علم الاجتماع الديني هو أن الإنسان حسب الأسفار الإلهية ليس عاقلاً بالطبيعة، فهذا هو تعليم أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان. الإنسانُ عاقلٌ؛ لأن روح الحكمة يعلِّم الإنسان. بل لعل القارئ الفطن قد أدرك عبارات سفر الخروج (خر ٣١: ٢ – ٥) التي تتكلم عن أن بصلئيل بن حور نال القدرة على الإبداع الفني لأن روح الحكمة، روح الرب قد أعطاه القدرة على العمل الفني لبناء خيمة الاجتماع[١].

* الهوية الإنسانية حسب الأسفار المقدسة، هي هويةٌ يكوِّنها الحوار الإلهي بين الله والإنسان. وهو حوارٌ دُوِّنت أصوله في الأسفار، وهو الحوار الذي يجعل الإنسان قادراً على أن يتحدث مع الله. فلا زلنا في حاجة ماسة إلى استيعاب العمل الإلهي للكلمة – *DAVAR*؛ لأن "الكلمة" ليست مجرد نطقٍ أو لفظٍ، بل هي عمل. وخلقُ كل الأشياء بكلمة الله حسب الأسفار (راجع على سبيل المثال تك ١: ٢٦)، هو المبدأ الإلهي الذي يؤكِّد أن الكلمة دخلت دنيا الإنسان لكي تجعله عاقلاً، وأن الحياة العقلية لا تتقدم بدون الكلمة؛ لأن الإنسان يعجز عن أن يفكر وأن يكون علاقة بغيره دون كلمة. ولذلك

---

(١) "اُنْظُرْ. قَدْ دَعَوْتُ بَصَلْئِيلَ بْنَ أُورِي بْنَ حُورَ مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا بِاسْمِهِ، وَمَلأْتُهُ مِنْ رُوحِ اللهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْفَهْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَكُلِّ صَنْعَةٍ، لاخْتِرَاعِ مُخْتَرَعَاتٍ لِيَعْمَلَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ، وَنَقْشِ حِجَارَةٍ لِلتَّرْصِيعِ، وَنَجَارَةِ الْخَشَبِ، لِيَعْمَلَ فِي كُلِّ صَنْعَةٍ".

رافقت الحضارات كلها عملية تقدُّم اللغات، واستعارت اللغات الكلمات، كلٌ من الأخرى لكي يتقدم الفكر ويسير نحو آفاق خلاقة.

فإذا كان التقدم فكرياً يحتاج إلى "الكلمة"، فما هي علاقة الكلمة بالتكوين أو الهوية الإنسانية؟ لعل دراسة *VICTOR FRANKL* التي نشرت عام ١٩٦٦ وأعيد نشرها بعد ذلك حتى عام ٢٠٠٦ *MAN'S SEARCH FOR MEANING* فتحت المجال أمام علماء الاجتماع والنفس لفحص آثار استخدام مفردات معينة على الفكر الإنساني[١].

فاللغة ومفرداتها قد تكون في حد ذاتها ذلك السور المنيع الذي يحاصر الفكر، ومن هنا جاءت حيلة النقل من لغاتٍ أخرى. وإذا دخلت كلمة "صورة الله" في الحياة الإنسانية، ارتفع الفكر نحو آفاقٍ أرحب، لا سيما آفاق حرية الاكتشاف التي رافقت حياة الإنسان، وجعلت تقسيم التاريخ الإنساني العام محدداً بالاكتشافات من العصر الحجري إلى عصر "الحاسوب الالكتروني"، ومن عصر المطبعة والبريد الجوي إلى البريد الالكتروني الذي يطوف العالم في دقائق. وجاءت الحضارة لتؤكد أن الإنسان هو خالق الحضارة، وأنه إله الكون فعلاً حسب كلمات المزمور ٨ فقد وضع الله كل شيء تحت قدمي الإنسان[٢].

* ولعل أبلغ آثار أو بصمات الصورة الإلهية، هي عطش الإنسان الدائم إلى الحرية وإلى الجمال وإلى الكمال وإلى المحبة. ولذلك، فعندما أنكر يوحنا كالفن أن الصورة الإلهية بقيت في الإنسان رغم السقوط، لم يدرك أنه أعطى الأساس اللاهوتي لانفصال العلوم الإنسانية والفن بكل أنواعه، والعلوم التجريبية عن اللاهوت، فقد صارت المعرفة،

---

(١) راجع على سبيل المثال الدراسة التي طبعت عدة طبعات:
.TREVOR. A. HARLY, THE PSYCHOLOGY OF LANGUAGE

(٢) "فَمَنْ هوَ الإِنْسَان حَتَّى تَذكرَه؟ وَابْن آدَمَ حَتَّى تَفْتَقِدَه؟ وَتَنْقصَه قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ، وَبِمَجْدٍ وَبَهَاءٍ تكَلِّله. تسَلِّطه عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ. جَعَلْتَ كلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ: الْغَنَمَ وَالْبَقَرَ جَمِيعًا، وَبَهَائِمَ الْبَرِّ أَيْضًا، وَطيورَ السَّمَاءِ، وَسَمَكَ الْبَحْرِ السَّالِكَ فِي سبلِ الْمِيَاهِ. أَيُّهَا الرَّبّ سَيِّدنَا، مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كلِّ الأَرْضِ!" (مز ٨: ٥ – ٩).

مجرد معرفة إنسانية لا علاقة لها بمعرفة الإنسان بكيانه أو بالله.

الله واللغة الإنسانية:

جميع لغات البشر هي من صنع البشر، فكيف يدخل الله دنيا الإنسان بدون لغة إنسانية؟ بل كيف يمكن أن تنشأ علاقة – مهما كان نوعها – بين الله والإنسان بدون لغة؟ وكيف يمكن لأي لغة – مهما كانت – أن تعبِّر عن الله نفسه؟ هنا، كانت أحد خصوصيات العهد القديم بالذات، هي استخدام العديد من الألفاظ الإنسانية في التعبير عن الله؛ لأن الإنسان عندما يتكلم عن الله، فهو لابد وأن يتكلم "إنسانياً" وأن يصف الله حسب لغته الإنسانية. وهنا يجب أن نشير إلى الدراسة التي أنجزها *George Lakoff* والتي طُبعت عدة طبعات[1] والذي بعث دور الاستعارات ودورها في الفكر الإنساني، ثم عاد بعد ذلك لكي يرد كل الاستعارات في بحثٍ آخر عن فلسفة الجسد، وكيف حدد الجسد دور الاستعارات إلى أن يوسع البحث:

Mark Johnson; Basis of Meaning Imagination and Reason.

والذي طُبع أيضاً عدة طبعات.

لكن ما يهمنا الآن هو أن اللغة رغم أصلها المادي *Material* إلاَّ أنها تحتوي على ما هو غير مادي، أي على المعاني والرموز التي تنقل الحس والانفعالات، وما هو فوق الأصوات والحروف.

السؤال الحتمي:

أليس بحث الإنسان عن الله يقابله بالضرورة بحث الله عن الإنسان؟ وإذا تم اللقاء، فهل يمكن أن يتم اللقاء على غير أرض الحياة الإنسانية: أولاً اللغة. وثانياً: التاريخ الإنساني نفسه، حيث يشترك الله مع الإنسان في أحداثٍ معينةٍ. وثالثاً: الحياة الإنسانية

---

١) George Lakoff. Metaphors we live by

التي لا وجود لها بدون الجسد، فالجسد رغم ما شُن ضده من حروب *Wars* عبر التاريخ، لازال هو الوجود الإنساني في الزمان والمكان والأرض نفسها.

فهل يمكن بعد هذا اعتبار التجسُّد ومجيء الله إلى الإنسان "الكلمة صار جسداً" (يوحنا ١: ١٣ – ١٤) مجرد حلم وثني دخل المسيحية؟!

الوحيُ تمهيدٌ للتجسد:

عندما ندرس العهد القديم يجب أن نلتفت إلى ما يتميَّز به هذا السفر الضخم من خصوصيات. فهو سفر حوار الله مع الإنسان بواسطة الأنبياء. وهو سفرٌ يسجل فشل الإنسان وخطاياه، ولكنه يسجل أيضاً صلاح الله الفائق. لا يمكن أن نفصل بين خطية الإنسان وصلاح الله ورحمته، فهذا ما ينطق به سفر المزامير وسفر القضاة.

الله قريب من الإنسان ويسكن في وسط شعبٍ يعرفه، يعبده ويصلي إليه، يرسل روحه لكي يمسح الملوك والأنبياء، ويرسل روح الحكمة لكي يقود الخليقة. فهل يقف الصلاح الإلهي عند الوحي والحوار والعهد وقيادة الشعب، وسُكنى روح الله؟ لقد كان التجسد هو آخر حلقات الإستعلانات الإلهية؛ لأن "اَللهُ، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيمًا، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُقٍ كَثِيرَةٍ، كَلَّمَنَا فِي هذِهِ الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ فِي ابْنِهِ، الَّذِي جَعَلَهُ وَارِثًا لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي بِهِ أَيْضًا عَمِلَ الْعَالَمِينَ" (عب ١: ١). والكلام بواسطة الابن جمع كل خصوصيات العهد القديم، وأضاف إليها خصوصية هامة، وهي أن كلمة التعليم نابعةٌ من حياة الابن المعلَن جسدياً "أشرق جسدياً"[١].

لم يَعُد الإعلان الإلهي لفظاً يقال، بل لفظٌ يقال بواسطة عمل *Action* وصار العمل هو المفسِّر للكلمة. لم تشرد كلمات العهد الجديد في فيافي التفاسير إلاَّ في العصر الحديث، ولكن الكنيسة الجامعة شرقاً وغرباً – على الأقل في الألف سنة الأولى – كانت

---

(١) راجع مرد قطع ثيؤطوكية الاثنين، التسبحة السنوية: "أشرق جسدياً بغير زرع بشر حتى خلصنا".

ترى حياة الرب يسوع الإله المتجسد هي المفتاح الذي يشرح الأسفار، ليس لفظاً، فهذا سهل، ولكن بتحول الكلمة *Word* إلى علاقة *Relationship* وصارت العلاقة شركة.

عند زيارتي ١٩٦٨ للأستاذ *George Lakoff* طلبت منه دراسة إمكانية ربط الكلمات والاستعارات في العهد الجديد بالعلاقة نفسها، وأذكر أنه ابتسم وقال لي: "هذا مشروعك أنت؛ لأن هذا يحتاج إلى شخص يؤمن أولاً ثم يدرس ما يؤمن به. وثانياً أن يكون هو طرفاً في هذه العلاقة أي علاقة الشركة". ولا زال البحث البدائي الذي بدأ في عام ١٩٦٨ عن العلاقة كمفتاح لشرح الأناجيل الأربعة وبالذات أمثال الرب يسوع ناقصاً، وإن كان قد قُدِّم في عدة محاضرات في جامعات ليدن في السويد – كامبريدج في انجلترا – أدنبرة في اسكتلندا. لكن ما يجب أن نحذِّر منه هو أن تتحول العلاقة نفسها إلى مجرد كلماتٍ تقال.

عندما سُئلت في أكثر من مرة عن سبب اهتمامي بالعلاقة كانت لي إجابة واحدة، وهي أن الإنجيل هو بشارة مفرحة، وهي بشارة بمحبة الله، والمحبة ليست قولاً ولا لفظاً ولا نظريةً، بل هي علاقةٌ. هذا هو غاية التجسد: المحبة التي لا سبب لها، والتي مصدرها المحبة، وقاعدتها الصلاح والجود.

– ٢ –

التسليم الرسولي السابق
على عصر القديس أثناسيوس الرسولي

من الأخطاء الفادحة التي سادت وملأت الكثير من الأبحاث، الاهتمام بكاتبٍ واحدٍ، أو بفترةٍ واحدةٍ، وقطع كل الوشائج التاريخية التي تسبق الأحداث الكبرى مثل مجمع نيقية ٣٢٥م، أو التسليم السابق لعصر معين مثل عصر الرسل، وما بعد الرسل، وكأن ما كتبه أوريجينوس – على سبيل المثال – كان نتاج قلمه وحده، دون أن يكون على علاقة بمن سبقه، وكأن آباء الكنيسة كانوا بلا كنيسة، أو كانوا أفراداً يعيشون بلا انتماء.

وهناك خطأٌ آخر أكثر فداحة، وهو أن نتصور أن العهد الجديد، أو الكتاب المقدس هو الذي أسَّس الكنيسة. قد ينطبق هذا بشكلٍ محدودٍ جداً على كنائس حركة الإصلاح في القرن ١٦؛ لأنها نشأت كرد فعل لما ساد كنيسة العصر الوسيط في أوروبا، ومع ذلك – أي بالرغم من انفصالها عن الكنيسة الأم، كنيسة روما – فقد جاءت كثمرة للعصر الوسيط نفسه، باعتبار أن قادتها أخذوا اللغة اللاهوتية وكل المصطلحات، أي الكلمات التقنية ممن سبقهم من علماء اللاهوت، بل كان أوغسطينوس هو الأب الروحي لمارتن لوثر، وكان يوحنا ذهبي الفم هو الأب الروحي ليوحنا كالفن، وبالطبع أخذ كلٌ من لوثر وكالفن، ما يروق لكل منهما من مؤلفات أوغسطينوس ويوحنا ذهبي الفم، وترك ما لا يروق له.

وللأسف الشديد لا زال لدينا تلك الصورة غير التاريخية عن الكنيسة في عصر

الرسل، فلم يصدر عندنا سوى كتاب واحد ممتاز عن الكنيسة المسيحية في عصر الرسل للأنبا يؤانس أسقف طنطا المتنيح، وكأن هذا هو نهاية البحث.

لا تزال الوثائق التاريخية القديمة التي تعود إلى بداية عصر المسيحية غير منشورة باللغة العربية، وعندما يدَّعي د. يوسف زيدان، وعلى صفحات جريدة يومية (المصري اليوم) بأن الأناجيل الأربعة عُرِفَت في القرن الثالث، فهو إمَّا يكتب عن جهل، وتلك مصيبةٌ، وإمَّا أنه يعرف تاريخ العهد الجديد، ولكنه لا يتحرى الصدق فيما يكتب، وتلك مصيبةٌ أعظم. وتاريخ برديات العهد الجديد يعود إلى عصر مبكر جداً، ومنها بردية صارت تُعرف باسم بردية يسوع؛ لأنها عبارة عن قطعة صغيرة من إنجيل القديس مرقس تعود إلى سنة ٤٥ أي إلى بعد ١٥ سنة فقط من صعود الرب يسوع، وهو ما يجعلها بمثابة شهادة شاهد عيان.

ولعل القارئ القبطي لا يعرف أن معظم هذه البرديات قد عُثر عليها في مصر، لا سيما تلك الجزازة، أو قطعة البردي رقم *P52* وهي أقدم ما وصلنا من القرن الثاني. لكن العبرة ليست في هذه الوثائق، رغم أهميتها الكبرى، بل في أن الجماعة المسيحية ظهرت **أولاً**: في أورشليم حيث صُلب الرب وقام، **وثانياً**: إن البشارة امتدت إلى باقي أجزاء فلسطين، ومنها إلى العالم القديم، عالم الإمبراطورية الرومانية.

ففي فلسطين تكونت الكنيسة، وكانت تقرأ العهد القديم باليونانية؛ لأن معظم الذين آمنوا كانوا من يهود الشتات. ومع العهد القديم كانت شهادة الرسل التي لم تدوَّن إلاَّ بعد فترة يختلف علماء العهد الجديد على تحديدها، لكن كانت الكنيسة جماعة صلاة، وذلك حسب شهادة سفر الأعمال، وحسب طبيعة وتكوين وتاريخ العلاقة بين المجمع *Synague* والكنيسة، وهو ما يظهر حتى من الوثائق اليهودية نفسها التي تعود إلى عصر مبكر حوالي سنة ٩٠ ميلادية. ولعل أهم هذه الوثائق هو ما صدر عن مجمع يمنة *Jamnia* فهو أول اجتماع بعد خراب هيكل أورشليم، وهو المجمع الذي حرَّم قراءة

السبعينية، وأضاف لعنةً تقال ضد "الناصريين" أتباع يسوع الناصري، ودخلت هذه اللعنة في صلوات يوم السبت، وأصبح أتباع يسوع هم *Bar-Monim* أي أبناء اللعنة أو أبناء الهلاك. كما أكد قادة اليهودية الربانيون ضرورة حرق أسفار العهد الجديد، وليس فقط منع قراءتها[١]. وعلى ذلك يمكننا تكوين صورةً واضحةً تماماً عن الكنيسة الأولى:

* اجتماع يوم الرب (يوم الأحد) ويوم الرب هو يوم القيامة.
* ممارسة عشاء الرب – الإفخارستيا.
* تعميد الراجعين من اليهود ومن الأمم إلى الله في يسوع المسيح.
* الاعتراف بالإيمان في الاجتماعات قبل وأثناء المعمودية.
* الصلاة باسم الرب يسوع المسيح.

هذه كلها ممارسات لم تنشأُ بنصٍ، أو بعدة نصوص، بل تعود أصلاً إلى طبيعة البشارة (الإنجيل)، وغايتها يسوع المسيح نفسه.

ما هي طبيعة بشارة الإنجيل؟

لم يأتِ المسيح يسوع بشريعةٍ، ولا حَصَرَ التعليم في ممارساتٍ طقسيةٍ. فإذا غابت هذه الحقيقة، غاب معها الإنجيل نفسه، أي بشارة الحياة، فقد جاء يسوع ببشارة

---

(١) اللعنة ضد المرتدين وهي صلاة عرفت باسم Birkat Ha-Minim ونص الصلاة:
"لتشمل رحمتك أيها الرب إلهنا الأبرار والصديقين وشيوخ شعبك وبيت إسرائيل والبقية الباقية من الكتبة والدخلاء ... وبعد ذلك .. "ليكن المرتدين بلا رجاء وأبد سلطان المتكبرين وانزعه من أساسه في أيامنا وليهلك المسيحيين والهراطقة في لحظة وأمحو أسمائهم من سفر الأحياء إلى الأبد لكي لا يحسبوا مع الأبرار" وعثر على نص الصلاة كاملة في بقايا مخطوطات مجمع بن عزرا في مصر القديمة – القاهرة المعروفة باسم Cairo Genizah والنص موجود في التلمود البابلي راجع دراسة Stephen G. Wilson: Related Strangers Jesus and Christian: 70-170 Fortress Press 1995 pages 178-180 وأصدر الربانيون تحريماً لأسفار الكنيسة التي أطلق عليها اسم Sitre Minim بل بحرقها وتدميرها راجع S. G. Wilson المرجع السابق ص ١٧٧.

ومن الصعب الحصول على الصلاة على مواقع الانترنت، بل لم يذكرها التلمود، لا سيما طبعات ومخطوطات العصر الوسيط، حتى جاء نص الصلاة في بقايا مخطوطات مجمع بن عزرا بالقاهرة المحفوظ أغلبها في مكتبة جامعة كامبريدج – انجلترا.

الحياة، ونقل هذه الحياة أولاً: بالتعليم، وثانياً: بحياته، أي بأقنومه الإلهي المتجسد.

ومع ذلك، لا زال هاجس الوحي، وربما "التنزيل" قابعاً في ضمائر بعض المسيحيين، حيث يظن هؤلاء أن كلمات الإنجيل هي البشارة، مع أن العكس هو الحق الواضح؛ لأن كلمات الإنجيل هي مجرد علامات، وتعليم يشير إلى الحقيقة الكبرى، وهي شخص ربنا يسوع المسيح.

شخص الكلمة المتجسّد:

عندما ندرس العهد الجديد نفسه دراسةً جيدةً، نجد أنفسنا أمام ظاهرة غريبة على اليهودية حيث وُلِدَت المسيحية في فلسطين، حيث تؤكد الدراسة الدقيقة أن دخول جماعة المؤمنين، أي الكنيسة كان يسبقه الاعتراف بالإيمان، ثم المعمودية، ثم التناول من جسد الرب ودمه. وقد حفظ لنا سفر الأعمال (٨: ٣٦ – ٣٨) الممارسة الليتورجية، إذ سأل "الخصي" فيلبس عن إمكانية حصوله على المعمودية، وأجاب فيلبس بأن هذا يجوز: "إذا كنت تؤمن من كل قلبك يجوز"، فأجاب وقال: "أنا أؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله" (أع ٨: ٣٧ – ٣٨). وتعتبر هذه أقدم صيغة اعتراف تسبق المعمودية، ويؤكد ذلك، النص الليتورجي الآخر في (أفسس ٤: ٤ – ١٢)[١] حيث يظهر قبول الآتين إلى الله في يسوع المسيح:

- جسدٌ واحدٌ (الكنيسة)
- روحٌ واحدٌ (الروح المعزي)

---

(١) "جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَرُوحٌ وَاحِدٌ، كَمَا دُعِيتُمْ أَيْضًا فِي رَجَاءٍ دَعْوَتِكُمُ الْوَاحِدِ. رَبٌّ وَاحِدٌ، إِيمَانٌ وَاحِدٌ، مَعْمُودِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، إِلهٌ وَآبٌ وَاحِدٌ لِلْكُلِّ، الَّذِي عَلَى الْكُلِّ وَبِالْكُلِّ وَفِي كُلِّكُمْ. وَلكِنْ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا أُعْطِيَتِ النِّعْمَةُ حَسَبَ قِيَاسِ هِبَةِ الْمَسِيحِ. لِذلِكَ يَقُولُ:«إِذْ صَعِدَ إِلَى الْعَلاَءِ سَبَى سَبْيًا وَأَعْطَى النَّاسَ عَطَايَا». وَأَمَّا أَنَّهُ «صَعِدَ»، فَمَا هُوَ إِلاَّ إِنَّهُ نَزَلَ أَيْضًا أَوَّلاً إِلَى أَقْسَامِ الأَرْضِ السُّفْلَى. اَلَّذِي نَزَلَ هُوَ الَّذِي صَعِدَ أَيْضًا فَوْقَ جَمِيعِ السَّمَاوَاتِ، لِكَيْ يَمْلأَ الْكُلَّ. وَهُوَ أَعْطَى الْبَعْضَ أَنْ يَكُونُوا رُسُلاً، وَالْبَعْضَ أَنْبِيَاءَ، وَالْبَعْضَ مُبَشِّرِينَ، وَالْبَعْضَ رُعَاةً وَمُعَلِّمِينَ، لأَجْلِ تَكْمِيلِ الْقِدِّيسِينَ لِعَمَلِ الْخِدْمَةِ، لِبُنْيَانِ جَسَدِ الْمَسِيحِ".

- ربٌ واحدٌ (يسوع المسيح)
- إيمانٌ واحدٌ (صيغة الاعتراف)
- معموديةٌ واحدةٌ، وهي التي تجمع المؤمن بالمسيح وتوحِّده به (رو ٦: ١ – ٦)، ويظهر أساس قانون الإيمان مبكراً:
- إلهٌ وآبٌ واحدٌ للكل
- الذي على الكل (في يسوع المسيح)
- وبالكل (في الروح القدس)

هكذا قرأ القديس إيرينيؤس كلمات الرسول في أفسس (٤: ٥).

والسؤال عن الإيمان كما رأينا في (أعمال ٨: ٣٧ – ٣٨) هو نفس السؤال الذي تشير إليه كلمات الرسول بطرس في (١بطرس ٣: ٢١): "سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح الذي هو في يمين الله إذ قد مضى إلى السماء وملائكة ... الخ (١ بطرس ٣: ٢١ – ٢٢). إذن فقد سبق الاعتراف بالإيمان التعليم، وكانت قاعدة قبول الدخلاء *Proselytes* في اليهودية هي التعليم، وحفظ الشِّمع التي تبدأ بالفعل إشمع أي اسمع يا إسرائيل (تث ٦: ٤ – ٩، ١١: ١٣ – ٢١ وعدد ١٥: ٣٧ – ٤١)، فهي صيغة الاعتراف بإلهٍ واحدٍ، ثم عبور البحر الأحمر بالتغطيس في الماء، ويسبق هذا، الختان طبعاً[١]. وعلى ذلك، فادعاء د. يوسف زيدان بتتابع الديانات هو ادعاءٌ بلا أساس بالمرة.

لاحظ أن النبي أشعياء يقول:

"أَنَا الرَّبُّ وَلاَ إِلهَ آخَرَ غَيْرِي....
بذَاتِي أَقْسَمْتُ...

---

(١) راجع دراسة:
E. Schurer Judism and the People in the Time of Jesus Christ – Vol. 377
وقد صدرت هذه الدراسة بالألمانية والفرنسية والانجليزية.

إِنَّهُ لِي تَجْثُو كُلُّ رُكْبَةٍ،
يَحْلِفُ كُلُّ لِسَانٍ" (٤٥: ٢١ – ٢٣).

أليس هذا هو ما نقرأه بعد استعلان الله في يسوع المسيح أن كل لسان سوف يعترف وكل ركبة سوف تجثو لله الآب في يسوع المسيح عند الاعتراف به رباً ومخلصاً (فيلبي ٢: ٦ – ٨)، وسوف نعود إلى الاعتراف بيسوع رباً في المحاضرات عن الأريوسية، لكن العشاء الرباني كان مناسبةً خاصةً عن يوم الرب، أي يوم قيامة يسوع من الأموات. ولم يكن لدى الكنيسة شيء اسمه يوم الأحد، بل يوم الرب أي يوم قيامة المسيح، ولذلك كانت الكنيسة تجتمع للعشاء الرباني؛ لأن الرب سيأتي حاملاً فيه ومعه بشارة الحياة بعطية جسده ودمه.

ولو دققنا في استخدام العهد الجديد للفعل "يعترف" وفعل "يشهد"، لوجدنا أن كلاهما خاصٌ بالإيمان بيسوع المسيح الرب، واستخدام الفعلين معاً في سياق الكلام عن الإيمان هو وصية الرسول بولس لتلميذه تيموثاوس: "أَمْسِكْ بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي إِلَيْهَا دُعِيتَ أَيْضاً، وَاعْتَرَفْتَ الاعْتِرَافَ الْحَسَنَ أَمَامَ شُهُودٍ كَثِيرِينَ" (١ تيمو ٦: ١٢). ولكن من أين يجيء الاعتراف بالإيمان؟ يقول الرسول مباشرة: "أُوصِيكَ أَمَامَ اللهِ الَّذِي يُحْيِي الْكُلَّ، وَالْمَسِيحِ يَسُوعَ الَّذِي شَهِدَ لَدَى بِيلاَطُسَ الْبُنْطِيِّ بِالاعْتِرَافِ الْحَسَنِ" (١ تيمو ٦: ١٣). وطبعاً سوف نرى ذات الكلمات بعد ذلك في قانون الإيمان: "صُلِبَ على عهد بيلاطس ...". وقد سبق وأشرنا إلى اعتراف "الخصي" بالإيمان قبل المعمودية. وسوف ندرس الاعتراف بإلوهية المسيح يسوع ربنا في المحاضرات عن الأريوسية، لكن يكفي هنا الإشارة إلى (١ كو ١٢: ٣) حيث يظهر أن الروح القدس هو الذي يُلقن الاعتراف: "وَلَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ:«يَسُوعُ رَبٌّ» إِلاَّ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ".

ومن كلمات الرسول في (١ كو ١٥: ١–٤)[١] يظهر بكل تدقيق:

---

(١) "وَأُعَرِّفُكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِالإِنْجِيلِ الَّذِي بَشَّرْتُكُمْ بِهِ، وَقَبِلْتُمُوهُ، وَتَقُومُونَ فِيهِ، وَبِهِ أَيْضًا تَخْلُصُونَ، إِنْ كُنْتُمْ تَذْكُرُونَ أَيُّ

- "الإنجيل الذي بشَّرتكم به" (البشارة).
- "وقبلتموه ....." (الحياة حسب الإنجيل).
- "وتقومون فيه ....." (الفعل لا يعني القيامة، بل الاستمرار).
- "به تخلصون ....." (نوال الميراث الأبدي).
- "فإني سلَّمت إليكم ... ما قبلته أنا" (التسليم الرسولي).
- "أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب وأنه دفن وأنه قام في اليوم الثالث حسب الكتب " (خلاصة قانون الإيمان).

التسلسل الرسولي حسب شهادة القديس إيرينيؤس:

يجب أن نذكِّر القارئ المصري الذي لا يملك فرصة الإطلاع على التراث أن شذرةً من كتاب القديس إيرينيؤس ضد الهرطقات، هي أقدم شذرة يونانية عُثر عليها في مصر، وليس في جنوب فرنسا حيث عاش إيرينيؤس، بل في جنوب الفيوم في قرية اندثرت عُرفت باسم *Oxyrhynchus* في العصر المسيحي الأول، وهي البردية رقم 3,405 [1]. وعثر أيضاً في ذات الموقع على بردية من بقايا إنجيل يوحنا (١٨: ٣٦)، وجزء من سفر أيوب في الترجمة السبعينية، وبقايا من كتاب هرماس الذي أشار إليه القديس أثناسيوس في كتاب تجسد الكلمة (ف ٣: ١). وهذا يؤكِّد الاتصال الدائم بين الكنائس، إذ كيف يمكن العثور على بردية من كتابٍ كُتِبَ في جنوب فرنسا، في جنوب الفيوم في مصر، دون أن تكون هناك علاقة بين هذه الكنائس وبعضها البعض؟

إذا عدنا إلى كتابات القديس إيرينيؤس نرى سلسلة التسلسل الرسولي على هذا

كَلاَمٍ بَشَّرْتُكُمْ بِهِ، إِلاَّ إِذَا كُنْتُمْ قَدْ آمَنْتُمْ عَبَثًا! فَإِنَّنِي سَلَّمْتُ إِلَيْكُمْ فِي الأَوَّلِ مَا قَبِلْتُهُ أَنَا أَيْضًا: أَنَّ الْمَسِيحَ مَاتَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا حَسَبَ الْكُتُبِ، وَأَنَّهُ دُفِنَ، وَأَنَّهُ قَامَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ حَسَبَ الْكُتُبِ".

(1) نشر النص مع دراسة له: R. M. Grant, Ireneus of Lyons, 1997, p 6 - 7

النحو:

-إيرينيؤس حوالي (١٢٥ ±)

* زار كنيسة أفسس (ضد الهرطقات ٣: ٣: ٤)

* سمع عن يوحنا الذي رأى يسوع (ضد الهرطقات ٢: ٥٠٢ – ٥: ٣٠)

* عرف أيضاً القديس الشهيد بوليكارب (ضد الهرطقات ٣: ٣: ٤)

* ومن بوليكارب عرف بابياس *Papias* (ضد الهرطقات ٥: ٣: ٤)

* بابياس عرف الرسل، وهؤلاء عاينوا يسوع.

الإيمان كما سلَّمه إيرينيؤس، وأعاد تأكيده أثناسيوس السكندري:

أولاً: يسوع الكلمة المتجسد "أيقونة" الخلاص حسب التدبير

١– يميِّز القديس إيرينيؤس بين الكلمة الخالق وهو أساس الإيمان، والكلمة الذي لأجله خُلِقَ الكون وكل ما فيه، وهي عبارة الرسول بولس نفسه: "الكل به"؛ لأنه خالق، وأضاف الرسول بولس: "له قد خلق"، فالكلمة ليس مجردُ خالقٍ رتَّب الكون بلا غاية، بل الكلمة هو سر وجود الكون وسبب الوجود نفسه *Raison d'etre* وفي مقطع هام في الرد على الهرطقات (٣: ٣٠٢٢) يشرح الإيمان الرسولي على هذا النحو:

> "هو جاء لكي يجمع *Recapitulates* في ذاته كل الشعوب التي تفرَّقت منذ آدم، وكل اللغات وكل أجناس بني البشر حتى آدم نفسه، لذلك السبب يدعو القديس بولس آدم (الأول) "مثال الواحد الذي سيأتي" (رو ٥: ١٤)؛ لأن الكلمة خالق كل الأشياء رسم بداية آدم وجعل هذه البداية – حسب تدبير الله – هي ما سوف يناله الجنس البشري بواسطة ابن الله. وهكذا رتب الله أن يكون الإنسان الأول "حيٌ" بالطبيعة لكي يخلُص بالإنسان الروحاني. كان المخلِّصُ كائناً قبل خلق آدم، ولذلك خلق آدم لكي ينال الخلاص ..".

وفي كتابه البراهين أو الأدلة على الإيمان الرسولي (فقرة ١١) يشرح خلق الإنسان على صورة الله ومثاله، مؤكِّداً أن الإنسان خُلق لكي: "يكون مثل الله – *Become Like God*"[١].

فالتجسد كان إعلاناً منظوراً عن "صورة الله" التي أعطيت لآدم:

> "في القديم قيل إن الإنسان خُلق حسب صورة الله، ولكن هذه الصورة لم تكن مُعلنَةً *not actually shown* لأن الكلمة (اللوغوس) لم يكن منظوراً، وهو الذي خُلق الإنسان حسب صورته ... ولكن عندما تجسَّد كلمة الله، أعلن في الجسد الصورة الإلهية الحقيقية؛ لأنه أخذ صورتنا لكي يثبِّت شبهنا *re-establish* بطريقة أكثر ضماناً، ويجمع الإنسان ويقوده إلى الآب غير المنظور؛ لأن الكلمة صار منظوراً".
>
> (مقدمة الكتاب الخامس ضد الهرطقات فصل ١٦: فقرة ٢)

هنا نلاحظ أن التعليم الأساسي هنا هو أن عودة الإنسان إلى الله في يسوع المسيح ليست علاجاً لسقوط الإنسان، بل تلك كانت هي الخطة الأزلية التي أشار إليها رسول الرب في أفسس (١: ٣ – ٤)، وعلى هذا الأساس يقول القديس إيرينيؤس:

> "لقد وحَّد *United* الإنسان بالله؛ لأنه جاء بشركة الله والإنسان. لم يكن في مقدورنا أن ننال أي شركة في عدم الفساد، إن لم يكن هو (الابن الكلمة) قد جاء إلينا؛ لأن عدم الفساد نفسه كان غيرَ منظورٍ، ولم ندرك نحن هذا حتى جاء هو وصار منظوراً لكي نشترك نحن في عدم الفساد.
>
> ولأن الكل كان مُشتَرِكاً في الخلق الأول، أي آدم الأول، وكُنّا

---

(١) راجع الترجمة العربية التي أصدرها مركز دراسات الآباء بالقاهرة لهذا الكتاب بعنوان "الكرازة الرسولية"، ص ٧٦ وما بعدها.

مستعبَدين للموت بسبب المعصية، كان من اللائق أنه بطاعة الواحد الذي صار إنساناً أن نتحرر *Loosed* من الموت، ولنفس السبب أخذ ربنا نفس الطبيعة المتأنسة ..".

(برهان الإيمان الرسولي فقرة ٣١)[١].

ثانياً: الأيقونة المعلنة في يسوع المسيح

إن ما أعلنه التجسد الإلهي هو – حسب عبارات القديس إيرينيؤس – أن الابن الكلمة المتجسد:

"جمع الإنسان *Recapitulating Man* في ذاته، فصار غير المنظور منظوراً، وغير المدرك مُعلَناً، والخاضع للمعاناة والألم حراً من المعاناة والألم".

(ضد الهرطقات ٣: ١٦ و٦).

لكن هذا الإعلان في أيقونة الحياة الجديدة ليس مجرد "إعلان"، بل كما يقول إيرينيؤس:

"لقد وعد الرب بأن يرسل المعزِّي الباركليت؛ لكي يجعلنا مستعدين لقبول الله. وكما أن الدقيق الجاف بلا ماء لا يصبح عجينةً، ولا يمكن أن يصبح رغيفَ خبزٍ واحداً، هكذا كُنّا نحن الكثيرون عاجزين عن أن نصبح واحداً في المسيح يسوع بدون الماء السمائي. وكما أن الأرض لا يمكن أن تقدم ثمراً بدون الماء، هكذا نحن أيضاً، فقد كنا من قَبْل شجرةً جافةً لا تقدر أن تثمر للحياة بدون المطر الذي ينزل من جود وصلاح (الله) من فوق، لكن أجسادنا تتحد بحميم المياه الذي يمنح عدم الفساد، ونفوسنا تنال نفس العطية بالروح".

(المرجع السابق ٣: ١٧، ٢).

---

(١) نُشِرَ هذا الكتاب بالاسم القديم: Epideixis ويمكن مراجعة الترجمة العربية التي أشرنا إليها في الحاشية السابقة ص ٩٧ وما بعدها.

ثالثاً: المبدأ الأصيل الخاص باستعلان الله

الاستعلان الإلهي ليس إدراكاً عقلياً. وقد كان الأب متى المسكين هو أول من اعترض على العبارة الشائعة: "الله عرفوه بالعقل"، وقال إن الله يُعلن عن ذاته، وبدون استعلان الله لا يمكن معرفة الله. وقبل الأب متى المسكين بما يزيد على ١٨٠٠ سنة قال القديس إيرينيؤس:

> "لقد علَّمنا الرب أنه لا يوجد أحدٌ من الناس قادرٌ على معرفة الله، إن لم يتعلم من الله؛ لأنه بدون الله لا يمكن معرفة الله. وهكذا – بإرادة الآب – صار الله مُستعلَناً لمن يريد الابن أن يعلنه لكي يعرفه الجميع" (المرجع السابق ٤: ٦ — ٤).

-٣-

التسليم الرسولي
كما شرحه القديس أثناسيوس

أولاً: الخليقة تعلن الله وتؤكِّد استعلان صلاح الله الآب

في الفصول ٢٧، ٣٥، ٣٦ من الرسالة إلى الوثنيين يؤكد أثناسيوس العظيم أن الخليقة تعلن "صلاح الله ومحبته"، لكن يجب أن نقف أمام عبارات ذات دلالة هامة في الفصل ٤١ من الرسالة إلى الوثنيين:

> "لقد رأى (الآب) أن كل الكائنات المخلوقة حسب طبيعة وجودها (من العدم) أنها في حالة عدم ثبات، بل وقابلة للانحلال *Dissolution* وحتى لا تعود من جديد إلى العدم ويسقط الكون كله في العدم، ولأن (الآب) خلق كل الأشياء بكلمته الذاتي وأعطى وجوداً لكل كائن، فلم يسمح بأن تطوَّح الخليقةُ ذاتها حسب الطبيعة التي خُلِقَت منها (العدم)، ولكن لأنه (الآب) صالح ويقود الخليقة بكلمته الذي هو الله حتى أنه بقيادة ورعاية الكلمة الذي يرتِّب وجود كل كائن، أخذت الخليقة النور (الحياة)؛ لكي تبقى كائنة، لأن الخليقة تشترك في الكلمة الذي بدوره يأخذ وجوده الحقيقي من الآب، وبذلك تنال الخليقة المعونة والصيانة؛ لكي تبقى كائنة ولا تؤول إلى العدم الذي جاءت منه، بل تبقى برعاية الكلمة؛ لأن الكلمة "هو صورة الله غير المنظور، بكر كل خليقة؛ لأن به قد خلق الكل وفيه الكل يبقى في الوجود *Consist* ما يرى وما لا يرى، وهو

رأس الكنيسة (راجع كو ١: ١٥)".

ويمكننا من هذا النص أن نستخلص المبادئ الآتية:

١– إن الخليقة باقية بسبب رعاية، بل وصيانة الكلمة الدائمة.

٢– إن الوجود هو وجودٌ حقيقيٌ أخذته الخليقة من الكلمة الذي يأخذ وجوده الأقنومي من الآب، فهو وجودٌ **موازٍ** *Parallel* للوجود الإلهي للثالوث. نحن أحياء ولنا وجودٌ كعطية، ولكن قوة العطية في أنها مُستمَدةٌ من العاطي والواهب، وهو الكلمة ابن الآب.

٣– إن الرعاية والصيانة *Maintenance* تتمثل في حفظ الخليقة لئلا تُطوِّحها الطبيعة التي خُلِقَت منها، أي الأصل، وهو العدم إلى العدم مرةً ثانيةً. ولذلك، فهي تبقى ليس بقدرةٍ ذاتيةٍ، ولكن بصلاح الله الآب الذي يعطي لها الاستمرار في البقاء.

ثانياً: الخليقة جاءت من الشركة بين الآب والابن:

يقول المعلِّم الكبير في الفصل ٤٦ من الرسالة إلى الوثنيين:

> "هو كائنٌ (الابن) مع الآب لأنه حكمته وكلمته، وهو يرى الآب، وبهذه الرؤيا، يصنع الكون ويرتِّبه *Organize* ويعطي له نظامه. ولأنه هو قوة الآب؛ لذلك أعطى قوةً لكل الكائنات لكي تبقى وقال: "ما يعمله الآب أراه وأعمل معه ذات العمل" (راجع يوحنا ٥: ١٩) لأن الآباء الرسل القديسين علَّمونا أن كل الأشياء خُلقت بواسطته، وخُلقت أيضاً لأجله (راجع رو ١١: ٣٦)".

ولكن المعلِّم الكبير لا يقف عند الرؤيا المشتركة والإرادة الواحدة والحياة الواحدة للآب والابن، فهو يؤكِّد أن **قوة الآب**، أي الابن هي مصدر قوة بقاء الخليقة، ولذلك يكمِّل شرحه، ويصف الكلمة ابن الآب بأنه:

* هو ثمرة صلاح الآب المولود منه.

* هو الابن الحقيقي.
* هو قوة الآب وحكمته وكلمته الذي لم يأخُذ من الآب **بالشركة**، ولا لأن هذه القدرات والصفات **قد أُعطيت** له من الخارج[١] مثلما تُعطى للذين يشتركون فيه، وهؤلاء قد صاروا **حكماء به**، وأخذوا القوة والإدراك **فيه**.
* ولكنه هو الحكمة الحقيقية ذاتها، والكلمة ذاته،
وهو ذات قوة الآب،
نوره الذاتي[٢].
الحق،
والبر، وباختصار يجمع كل الأشياء،
هو كاملٌ تماماً؛ لأنه مولودٌ من الآب".

هذا التأكيد التام لإلوهية الابن هو تأكيدٌ يمس الخليقة نفسها. والخليقة هنا تعني صورة الله في الكون، أي الإنسان ذاته. هذا يجعل القديس أثناسيوس – دون قراءة أدبيات العصر الوسيط وفكر بعض الإكليروس القبطي المعاصر – يشرح في كلمات قاطعة خلاص الإنسان على الوجه الآتي:

"ما هو الذي كان ممكناً أن يفعله الله؟
"وماذا كان يمكن أن يتم (يتحقق في الواقع) سوى تجديد الخليقة التي وُجِدَت على صورة الله، مرةً أخرى".
"كيف كان ممكناً لهذا الأمر أن يحدث إلاَّ بحضور نفس صورة الله – مخلصنا يسوع المسيح؟".
"لهذا أتى كلمة الله بذاته لكي يستطيع – وهو صورة الآب – أن

(١) "من الخارج" عبارة ضرورية تؤكد أن القدرات والصفات ليست نابعة من الكيان وهو ما ينطبق على المخلوقات ولذلك فإن نفي أن تكون هذه قد أعطيت من الخارج هو نفيٌ تام يؤكد أن الابن ليس مخلوقاً.
(٢) حاول مطران دمياط اللاهوتي الأوحد في الكنيسة القبطية إعادة هرطقة أنوميوس التي تميز بين قوة الله وأقنومه لأنه لم يعرف أن الابن هو قوة الآب، وقوة الآب هو قوة ذاتية أي أقنومية.

يجدِّد خلقة الإنسان على مثال الصورة".

(تجسد الكلمة فصل ١٣: ٦ – ٧ –

راجع أيضاً ضد الأريوسيين ١: ٢٢).

ثالثاً: طبيعة العلاقة مع الله

العلاقة مع الله ليست كلاماً يقال ولا نصوصٌ نرددها، **بل هي علاقة كيانية بين وجودٍ أزليٍّ، ووجودٍ حسب النعمةِ في الزمان**. لقد أنقذ أثناسيوس الحياةَ، وليس ذلك فقط، بل حتى المسيحيةَ أنقذها من دمار الهرطقات. لقد جاء أثناسيوس من المقاومة العنيفة لإغراق الإيمان في مصطلحاتٍ وعباراتٍ، **وعلاقةٍ كلاميةٍ تقوم على قوة اللفظ**، وهي العلامة المميِّزة لكل الهرطقات دون تحديد هرطقة معينة. ونحن هنا نقصد ذلك **اللفظ الذي لا يعبِّر عن علاقة كيانية**، فما أسهل أن ينزلق الإنسانُ في علاقاتٍ عقليةٍ من طرفٍ واحدٍ تقوم على الإدراك العقلي دون أن يكون هناك شركة حقيقية في واقع الحياة الحقيقية.

وفي عبارة موجزة يفَصِلُ القديس أثناسيوس بين المسيحية والأريوسية:

"إذا قالوا إن الابن مخلوقٌ من العدم، ولم يكن له وجودٌ قبل ميلاده (من الآب)، فإن الابن يصبح مثل باقي المخلوقات ويدعى ابن الله وحكمته **بالشركة فقط**، لأنه هكذا كل الخلائق الأخرى توجد وتمجَّد بالتقديس".

(ضد الأريوسيين ١: ١٥ راجع أيضاً ١: ١٦، ١: ٢٦).

رابعاً: فقدان الشركة

فقدان الشركة يعني العودة إلى الفساد، أي العدم (تجسد الكلمة ٣: ٤ – ٥)، والشركة من الخارج هي النعمة الممنوحة للإنسان، وهي بالتحديد:

* الصورة التي تستمد وجودها وبقائها من الكلمة.

* العلاقة الحية الفعالة التي تحفظ الإنسان من السقوط، لأن الإنسان دُعيَ لأن "**يبقى في عدم فساد**" (تجسد الكلمة ٤: ٤)؛ لأنه كائنٌ مثل الله الكائن (٤: ٥). وكلمة "يبقى μενειν" تعني البقاء في الشركة، أمَّا ما هو عكس ذلك، فهو العودة إلى الفناء (تجسد الكلمة ٤: ٤) وهو ما لم يسمح به الله.

خامساً: النفس الإنسانية هي مجال استعلان الله وعمل الكلمة

في الفصل ٤ من الرسالة إلى الوثنيين يحدد أثناسيوس النفس الإنسانية باعتبارها القوة الحقيقية التي تحرِّك كل حواس الجسد. وفي باقي الكتاب، لا سيما فصل ٣٣ نرى أن قوة الفهم والذكاء والسيطرة على الحواس وتأمُّل ما هو غير مائت، عائدٌ إلى النفس الإنسانية. وفقدان معرفة الله بسبب ارتداد النفس نحو ذاتها وكيانها بدون الشركة جعل النفس تختار ما هو ليس من الله، وهو الشر؛ لأن الله هو الخير، وما هو غير الله ليس وجوداً حقيقياً، ومن هنا جاءت العبارة المشهورة[١]: "**كل ما هو شر فهو عدم، وكل ما هو خير فهو موجود**" (تجسد الكلمة ٤: ٥). فالشر هو الوجود بدون الله، أو الوجود المزيَّف، وهو حركة النفس وقواها العقلية إلى ما هو ضد الله، أي ضد الخير، وهو ما يتصوره الإنسان عقلياً (الرسالة إلى الوثنيين ٢: ١، ٦: ٢ – ٥، ٧: ٣).

إن ما ليس له وجودٌ εἰς τά μη οντα هو الذي أدخل الموت وأبعَدَ الحياة، وهو حالة الوجود بدون شركة، وهو أيضاً التخلي عن "صورة الله"، لذلك كان من الضروري أن يجيء الكلمة ليردَّ الحياة الضائعة للإنسان:

"بدأ الفساد يسود عليهم بل صار له سيادة أقوى من سيادته

---

(١) لا أدري كيف يمكن أن يتصور إنسان أن الخطية لها وجود مادي حقيقي خارج الخطاة أنفسهم، وبالتالي إذا كان الشر عدم فكيف نقل الآب خطايا البشر التي ليس لها وجود إلا في البشر ووضعها على الابن المصلوب. لقد حمل الرب جسد الموت أي جسد الخطية وبذلك حوَّل هذا الجسد إلى جسد حياة أي جسد القيامة.

الطبيعية وذلك لأنه (الفساد) حدث نتيجة عصيان الوصية ..".

(تجسد الكلمة ٥: ٢).

الكلمة مؤسِّس الخليقة، وتدبير الخلاص

تُعد المقالة الثانية ضد الأريوسيين ليست مجرد رد على الأريوسيين، بل بمثابة تقديم الأساس المسيحي للتعليم نفسه. والسؤال الذي يطرح نفسه بقوةٍ، ولا يمكن أن نتجاوزه بعد أن شرح القديس أثناسيوس في كتاب تجسد الكلمة "العلاقة بين الكلمة الخالق "، و"الخليقة"، وهي العلاقة التي كان الإنسان فيها شريكاً للكلمة يتبعه مثل "تبعية الظل للنور" (تجسد الكلمة ٣: ٣)، هو: كيف انهارت هذه العلاقة، أي علاقة الشركة في "قوة الكلمة"، تلك العلاقة التي جعلت الإنسان عاقلاً، ولذلك جاء الكلمة وتجسَّد لكي يُعيد هذه العلاقة: **علاقة الشركة**، ويجدد الخليقة.

ولكن يبقى هناك سؤالٌ آخر لا يمكن تجاهله: هل كانت الخطية والسقوط هو سبب تجسد الكلمة؟ أو بكلمات أخرى: هل كان تدبير الخلاص هو مجرد تدبير لمواجهة مشكلة؛ لأن الإنسان لا يمكن أن "يخلِّص" أو "يفدي " نفسه؟ لأن ما أصاب الإنسان هو "الموت"، وهو أمر جاء – حسب تجسد الكلمة ٥: ٢ – من مصدرين:

الأول: هو السيادة الطبيعية على الإنسان المخلوق من العدم.

الثاني: تهديد الله، والحكم بالموت في حالة العصيان.

فهل كان التجسد تدبيراً خاصاً بالسقوط، أم أن هناك ملامحَ أخرى هامةٍ ضاعت من الذين وقعوا أسرى، بل ضحايا العصر الوسيط المتجذِّر في تعليم أغسطينوس وأنسلم والأب أوجين دي بليس؟

يجب علينا أن نجيب من كتابات القديس أثناسيوس، وليس بافتراضات واحتمالات عقلية ونظرية تعتمد على أفكارٍ مسبقة *Presuppositions*.

إذا عُدنا إلى بحث إلوهية الكلمة الخالق، وهو المبدأ الأصلي الذي دار حوله الصراع ضد الأريوسية في المقالة الثانية، وجدنا الرد في الفقرات ٧٣ – ٧٤ – ٧٥.

وقبل أن نقدِّم العرض الدقيق للتعليم، أريد أن أُذكِّر القارئ بأن الصراع لم يكن يدور حول تفسير كلمات الكتاب المقدس، بل كان البحث عن ذات أساس التعليم. لقد كانت كلمات سفر الأمثال ٨: ٢٢ – ٣٠ هي أحد الادعاءات الأريوسية على أن الكلمة، الحكمة، الابن هو مخلوقٌ. وعلى القارئ أن يلاحظ الاستخدام الدقيق لكلمتي: "خُلِقَ"، و"أُسِّسَ".

يسأل أثناسيوس:

> "مكتوبٌ بالحكمة أسَّس الله الأرض، فإن كانت الأرض قد تأسَّست بالحكمة، فكيف تأسَّس الحكمة الذي أسَّسها؟".

يجيب أثناسيوس نفسه:

> "أُسِّست لأجلنا لكي تصير بداية وأساس خلقتنا الجديدة، بل وتجديدنا".
>
> (ضد الأريوسيين ٢: ٧٣).

لقد أكَّد القديس أثناسيوس ضرورة الالتفات إلى مفردات "سفر الأمثال"؛ لأن ما كُتِبَ "قد قِيل بأسلوب سفر الأمثال" (ضد الأريوسيين ٢: ٧٣). أي تقديم "مثل *Parable*"[1]. والمثل يُقدِّم أطروحةً تطرح نقطةً هامةً، ولذلك يؤكِّد أثناسيوس نفسه في الفقرة ٧٤ أن كانت كلمات أمثال ٨: ٢٢ – ٣٠ هي "أمثال ليست عن الابن ذاته، بل عن هؤلاء الذين يُبنون على أساسه"، فهو الأساس الذي فوقه شُيِّد الكل. والأساس هو ما ذكره الرسول في (١ كور ٣: ١١)، أي يسوع.

---

(١) "مَثَل" كلمة عبرانية – آرامية – سريانية – عربية، وتعني تقديم عبارة أو أكثر عن موضوع يصاغ من أجل نقطةٍ محددة. وكلمة Parable هي كلمة مستعارة من اليونانية الكلاسيكية، ولها نفس معناها المعروف في العبرانية. ولعل القارئ يعرف أن "أمثال" الرب يسوع المسيح بلغت حوالى ٣٨ مثلاً تقريباً. وأقدم أمثال العهد القديم هو مثل الأشجار (قض ٩: ٧)، والمثل الذي قدَّمه يوناثان النبي ليرد داوود للتوبة (٢ صم ١٢: ١).

هنا يجب أن يكون لدينا "الحس اللاهوتي الدقيق"، الذي يؤكِّد لنا أن التدبير لم يأتِ من فراغ، وأن إعلانه في الزمان له "أساسٌ في الأزل". ولأن الأساس أُعلن في الزمان، أي زمان الخلاص، يقول أثناسيوس العظيم حقاً:

"من اللازم أن يكون الأساس (الحكمة) مماثلاً لتلك المخلوقات التي أُسِّست عليه؛ حتى يمكن لهذه المخلوقات أن تنسجم معه، وتتحد به".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٤).

لكن الكلمة يمتلك ما يميِّزه تماماً عن الخليقة؛ لأنه الكلمة. ولكن عندما يتخذ جسداً يمكن أن يُبنى عليه الكل:

"ولأنه الكلمة الحق، فلا يوجد من يماثله من الخلائق،
وبذلك يتعذَّر على الخلائق الاتحاد به، فهو وحيد الجنس،
ولكن عندما يتأنس،
صار له من يماثلونه،
وهم (البشر) الذين لبس جسدهم المماثل لجسده".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٤).

فالأساس هنا هو التجسد المعلَن في الزمان:

"تأسَّس" بحسب بشريته؛ لكي يمكننا نحن أيضاً أن نُبنى فوقه على هذا الأساس كحجارة حية كريمة ونصير هيكلاً للروح الساكن فينا. هو الأساس الحق، نحن الحجارة التي تبنى عليه".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٤).

ولا يقف القديس أثناسيوس عند هذا الشرح، بل يؤكده من كلمات الرب يسوع نفسه:

"هو الكرمة ونحن نصبح أغصانه،
ليس حسب جوهر اللاهوت؛ لأن هذا مستحيل حقاً،

بل بحسب بشريته؛
لأن الأغصان يجب أن تكون مثل الكرمة.
فنحن مشابهون له حسب الجسد"[١].

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٤).

ولكي لا يضيع تأكيد القديس أثناسيوس على إلوهية الابن الكلمة والحكمة، يؤكد أثناسيوس:

"عندما أُسِّس الرب، لم يكن هذا هو بداية وجوده".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٤).

فلا أساس بالمرة لأي شيء ليس مبنياً على إلوهية الابن الكلمة ربنا يسوع المسيح. فالأساس الأزلي كائنٌ، وعليه جاء التجسد:

"عندما لَبِسَ جسدنا الذي أخذه كقطعةٍ من جسد مريم،
عندئذٍ يقول (سفر الأمثال): الرب أسَّسني.
وهذا يعني: لأنني الكلمة، فقد ألبسني جسداً ترابياً".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٤).

لكن لاحظ هذه الكلمات:

"لأنه تأسس من أجلنا، وأخذ ما يخصَّنا وجعله خاصاً به".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٤).

فالتدبير هو:

"اتحادنا معه في الجسد *Incorporated*
متأصِّلين ومرتبطين معاً فيه بواسطة مشابهة الجسد،
ولذلك نصبح غير مائتين وغير قابلين للفساد.
وبه (بالمسيح) نصل إلى الإنسان الكامل"[١].

---

(١) "مشابهون له حسب الجسد" لا تنفي دور الإلوهة، بل تؤكده؛ لأن المشابهة حسب الجسد بلا إلوهية الابن تجعل تدبير الخلاص فارغاً من الحياة، وبدون الله.

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٤).

النعمة في الزمان سابقة على خلق العالم

يؤكد القديس أثناسيوس:

"رغم أن النعمة التي وهبنا المخلص إياها قد ظهرت حسب قول الرسول عندما تجسد وعاش بيننا (تيطس ٢: ١١)، إلاَّ أن هذه النعمة كانت قد أُعِدَت قبل أن يخلقنا، بل حتى قبل أن يخلق العالم".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٥).

ولكن ما هو السبب اللاهوتي في تأكيد استعلان النعمة في الزمان، تلك النعمة التي سبقت خلق العالم؟

يجيب المعلِّم السكندري ويقول:

"١- ليس من اللائق أن يفكر الله فيما يخصَّنا بعد أن خَلَقَنا؛ لأنه لا يجهل كل الظروف الخاصة بنا".

"٢- فإله الجميع، عندما خلقنا بكلمته الذاتي، ولأنه كان يعرف أمورنا أكثر منَّا، ويعرف مقدَّماً أنه رغم أنه قد خلقنا صالحين، إلاَّ أننا بعد ذلك سوف نخالف الوصية، بل سنُطرد من الجنة بسبب العصيان".

"٣- ولأنه محب البشر وصالح، فقد أعدَّ لنا من قبل (خَلقِنا) تدبير خلاصنا بكلمته الذاتي، الذي به أيضاً خَلَقَنا".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٥).

هذه النقاط الثلاث هي المحور الأصلي الذي دار لأجله صراعٌ امتد على الأقل

---

(١) "الإنسان الكامل" تعبير يعلن وصول الإنسان في المسيح إلى غاية الخلق، وهي القيامة والحياة الأبدية. كذلك تعبير: "ملء قامة المسيح"، أي كمال الإنسانية المعلن في القامة الكاملة التي حققت غاية الخلق، وهي الاتحاد بالثالوث.

لمدة ٣٠٠ سنة بعد نياحة القديس أثناسيوس، وهي تؤكد معرفة الله السابقة المتجذِّرة في الصلاح ومحبة البشر، وبكل يقين كان الكلمة خالق الكل هو الذي سبق ودبَّر الخلاص.

ويكمل القديس أثناسيوس بعد ذلك الشرح ويقول:

"١- كنَّا قد خُدعنا بواسطة الحية وسقطنا".

"٢- لم نبقَ أمواتاً حتى النهاية".

"٣- صار لنا بالكلمة الفداء والخلاص الذي سبق إعداده لنا؛

لكي نقوم (من الموت) من جديد ونظل غير مائتين".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٥).

ويدعِّم القديس أثناسيوس شرحه بكلمات الرسول التي تؤكِّد "القصد والنعمة التي أُعطيت لنا في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية، وإنما أُظهرت الآن بظهور مخلصنا يسوع المسيح الذي أبطل الموت وأنار الحياة" (٢ تيمو ١: ٨ - ١٠). ثم بعد ذلك كلمات الرسول في أفسس ١: ٣ — ٥ عن اختيارنا في المسيح يسوع "قبل تأسيس العالم ... إذ سبق فعيننا للتبني بيسوع المسيح" (راجع ضد الأريوسيين ٢: ٧٥).

تدبير الخلاص سَبَقَ تدبير الخلق

يسأل القديس أثناسيوس نفسه سؤالاً مبنياً على كلمات أفسس ١: ٣ — ٥، وحسب كلمات القديس أثناسيوس:

"كيف اختارنا قبل أن نُخلق؟

ولكن هذا حدث — كما قال الرسول نفسه — لأننا كنَّا مُمَثَّلين فيه *Represented* من قبل خلقتنا"[١].

---

(١) حسب التدبير، وكما ذكر القديس أثناسيوس نفسه في تجسد الكلمة فصل ١٣، ١٤ وفي المقالة الأولى ضد الأريوسيين: ٥١ وفي المقالة الثالثة: ٢٠ أن كل ما حدث في التدبير كان كائناً في الكلمة خالق كل الأشياء. وهذا هو ذات التعليم الذي شرحه أكليمنضس السكندري في المتنوعات ٥: ٣، ودافع عنه العلامة أوريجينوس ضد كلسوس ٦: ٧٤ في عبارة ذات دلالة: "كل ما كان الله يريد أن يفعله في الخلقة كان كائناً في الكلمة".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٦).

ولكي لا تفلت من إدراكنا النقاط الأساسية في الإجابة على هذا السؤال، يجب أن نُقسِّم كلمات القديس أثناسيوس من أجل الإيضاح وحده:

١- "كيف يضيف الرسول قائلاً: "نلنا نصيباً معينين سابقاً" (أف ١: ١١) لو لم يكن الرب نفسه قد تأسَّس قبل الدهور.

٢- كان له قصدٌ من جهتنا، وهو أن يأخذ هو ذاته بواسطة الجسد ما ورثناه من دينونة كانت ضدنا، لكي نصبح بعد (رفع الدينونة) أبناءً فيه..".

٣- "كيف قبلنا أو أخذنا نحن هذا (النعمة) "قبل خلق العالم"، رغم أننا لم نكن قد خُلِقْنا بعد، لأننا خُلِقْنا في الزمان؟ لكن كانت النعمة التي وصلتنا محفوظة في المسيح".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٦).

وما يؤكد هذا الشرح هو قول الرب يسوع نفسه الذي ختم به القديس أثناسيوس شرحه لمعاني (أفسس ١: ٣ – ١١) إذ يقول:

"في (يوم) الدينونة عندما ينال كل واحد حسب الحياة التي عاشها يقول (الرب يسوع): تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعد لكم منذ تأسيس العالم" (متى ٢٥: ٣٤)".

(المرجع السابق)

السؤال الذي سأله نفس المُعلِّم الكبير؟

"كيف إذن أو بواسطة مَن أُعِدَّ الملكوت قبل أن يخلقنا، إن لم يكن بواسطة الرب الذي "تأسَّس قبل الدهور" لأجل هذا القصد".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٦).

لكي ننال الملكوت السماوي وهو مُلك الله نفسه، أي أن يكون لنا شركة في

حياة ومُلك الله الأزلي، لا بُد وأن يكون الابن أزلياً "قبل الدهور"؛ لأننا لا يمكن أن ننال شيئاً أزلياً أو أبدياً من إنسانٍ مثلنا. ولذلك بقية النص السابق تؤكد:

"لكي نُبنى عليه كحجارةٍ متَّحدةٍ، فنشترك في الحياة والنعمة اللتين تمنحان معه".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٦)

وهنا يؤكد أثناسيوس العظيم:

"لكي نستطيع أن نحيا إلى الأبد".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٦).

ويعود القديس أثناسيوس إلى ما سبق وأن كرره وأكِّده عدة مرات:

"كما قلت سابقاً، ما دمنا قد قُمنا من الموت المؤقت؛ لأن (الحياة الأبدية) كانت مستحيلةٌ أصلاً؛ لأننا بشر (خُلقنا) من تراب ... لكن بمجيء الكلمة وتنازُلِهِ إلينا عندما انحدر إلى جسدنا، وصار هو بداية الخليقة الجديدة، بل أول الطريق، فإن الخليقة سوف تنتهي وتزول، أمَّا نحن فلا نبلو مثل المخلوقات الأخرى، بل سوف نحيا بعد أن تفنى هي".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٦).

النقطة الحاسمة والفاصلة:

"لن تكون لنا حياة مؤقتة، بل سنحيا في المسيح؛
لأن حياتنا قد تأسَّست وأُعدَّت بالمسيح يسوع ...
لأن الحياة تأسَّست في الرب الكائن منذ الأزل".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٧)

ولذلك، لا يمكن أن نرث الحياة الأبدية إلاَّ إذا كان الابن نفسه أبدياً.

تشبيهٌ بليغٌ هام:

رغم اختلاف لغة القديس أثناسيوس عن لغة القديس إيرينيؤس، إلاَّ أننا لا يمكن أن نفقد رؤية الخط الواحد الواضح فيما بينهما، وهو أن التدبير سابقٌ على السقوط، وسابقٌ على خلق العالم نفسه، وقد صاغ أثناسيوس هذه الرؤية في الفقرة ٧٧ من المقالة الثانية، في تشبيه واضح يجب أن يحظى منَّا بمزيد من العناية، ولذلك سوف نقدِّمه في فقرات متتابعة:

١- "الله صالح، وهو صالحٌ دائماً، وهو يعرف طبيعتنا الضعيفة التي تحتاج إلى معونته وخلاصه".

٢- "لذا فقد رتَّب هذا مثل ترتيب المهندس الحكيم الذي يريد أن يبني منزلاً، فإنه يدبِّر ويضع في خطة البناء كيف يمكن تجديد البناء مرةً أخرى، لو أصيب بدمار في يوم من الأيام بعد بناؤه".

٣- "وهو (المهندس الحكيم) يعد لهذا قبل البدء في البناء، عندما يخطط للبناء، ويعطي للقائم على العمل الخطة اللازمة للتجديد".

٤- "هكذا يكون في الخطة نفسها، خطة سابقة على البناء نفسه للتجديد قبل الشروع في بناء المنزل".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٧).

التطبيق:

بعد هذا التشبيه يقدِّم القديس أثناسيوس معالم التدبير كالآتي:

١- "بنفس الطريقة كان تجديدنا للخلاص قد تأسَّس في المسيح (قبل أن نخلق) لكي يمكن إعادة خلقنا من جديد فيه".

٢- "فالإرادة والتخطيط قد أُعدَّا منذ الأزل".

٣- "أمَّا العمل (التنفيذ)، فقد تم عندما استدعت الحاجة، وجاء المخلص إلى العالم".

(ضد الأريوسيين ٢: ٧٧).

لا نستطيع إذن أن نهرب من مواجهة هذا السؤال:

هل كان التجسد بسبب خطية آدم؟

التشبيه السابق يجيب بالنفي. ولو كان القديس أثناسيوس من تلاميذ العصر الوسيط لأكَّد هذه النقطة بالذات.

المقالة الرابعة في الرد على الأريوسيين، ودور الوسيط:

بكل أسف، جاء جيلٌ من الدارسين اعتبر المقالة الرابعة من مؤلفات ما بعد القديس أثناسيوس، وذلك لسبب واحد، وهو أن المفردات اللاهوتية مثل "أقنوم"، "جوهر" قُدِّمت بشكل متطوِّر عن المقالات الثلاثة السابقة. هذا موضوع لا يهمنا في الوقت الحاضر — سنعود إليه في المحاضرات عن الأريوسية — ولكن الذي يهمنا الآن كيف يقدم القديس أثناسيوس موضوع الوسيط: الرب يسوع المسيح.

> "يُلزِمُنا تعليم الأريوسيين الهزيل الذي يرد كل شيء إلى الإنسانية أن نقول إن ربنا الذي هو الكلمة وابن الله، لَبِسَ الجسد وتأنَّس لأنه صار ابن الإنسان؛ لكي يصبح الوسيط بين الله والبشر، ولكي يخدم ويُقدِّم ما يخص الله لنا، ويقدِّمنا نحن إلى الله[1]...
>
> هو يأخذ ما لنا ويقدِّمه للآب متشفعاً لأجلنا لكي يلاشي الضعفات الإنسانية. وعندما قال: "دُفِعَ إليَّ كل سلطان" وأيضاً: "لذلك رفَّعه الله" (فيلبي ٢: ٧)، فإن هذه العطايا قُدِّمت لنا بواسطته؛ لأن الكلمة لم يكن لديه احتياج لأيٍّ منها، فهو لم يُخلق في الزمان (مثلنا)، وأيضاً لأن البشر لم يكن لديهم القدرة على أن يقدِّموا هذه العطايا كلٌ للآخر، ولذلك قدَّم لنا الكلمة هذه العطايا. وما أخذه

(١) صارت هذه العبارة أحد المبادئ اللاهوتية عند اللاهوتي الألماني كارل بارت، ونقلها عن المقالة الرابعة.

الكلمة قد أُعطي لنا؛ لأن هذا هو القصد من تجسده، وما يأخذه هو (من الآب) يقدَّم لنا. أمَّا الإنسان – مهما كان – فهو لا يملك أن يقدِّم شيئاً لإنسان آخر مثله. ومرةً ثانيةً لم يكن الكلمة في حاجة إلى أن يأخذ شيئاً من العطايا. أمَّا (بعد تجسُّده)، فإن الكلمة، وقد اتحد بنا، فقد وهبنا القدرة ورفَّعَنَا فيه. لأن الكلمة، إذ تأنس، فقد رَفَّع exalted الإنسان. ولأن الكلمة تأنَّس، فقد قَبِلَ الإنسانُ النعمةَ، ورُفِّع الإنسانُ وأخذ القدرةَ. وكل ما قِيل إن الكلمة أخذه، قد أُعطيَ إلينا ...

وكل مَن يشفع في آخر يأخذ العطية، لا من أجل احتياجٍ خاصٍ به، بل من أجل الذين يتشفع فيهم".

(ضد الأريوسيين ٤: ٦ مجلد ٢٦: ٤٧٦ – ٤٧٧)[١].

ما الذي أخذه الكلمة؟

والجواب: أخذ الروح القدس لأجلنا عندما اعتمد في الأردن:

"أنا نفسي أُعطي ذاتي الروح. أنا الصائر إنساناً.

وأنا الصائر إنساناً **أُقدِّس الجميع فيَّ** ...

فإن كان يقدِّس ذاته لأجلنا، وقد فعل هذا لأنه قد صار إنساناً، فمن الواضح تماماً أن نزول الروح عليه في الأردن كان نزولاً علينا نحن، بسبب لبسه جسدنا ...

لكي نشترك في مسحته ...

وعندما اغتسل الرب في الأردُن كإنسان،

كنا نحن الذين نغتسل فيه وبواسطته".

(ضد الأريوسيين ١: ٤٦، ٤٧)[١].

---

(١) راجع الترجمة العربية التي أصدرها المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة في مايو ٢٠٠١ – سلسلة نصوص آبائية رقم ٥٥ – ص ١٥، وما بعدها.

المجد الإلهي:

"حينما اعتمد، كنا نحن الذين نعتمد في شخصه (أقنومه) ... ويعلن المخلِّص ذلك بشكلٍ واضحٍ تماماً عندما يقول للآب: "وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما نحن واحد" (يوحنا ١٧: ٢٢). وتبعاً لذلك، فإنه كان يطلب المجد لأجلنا ... لكي نمجَّد نحن فيه مجداً سامياً".

(ضد الأريوسيين ١: ٤٨ – راجع أيضاً الرسالة إلى أدلفوس فقرة ١ – ٤).

المسيح رأس الخليقة الجديدة:

لقد مُسح الرب يسوع، والمسحة كانت خاصةً بتجسده؛ لأن اللاهوت لا يمسح اللاهوت. ودقة تعبير القديس أثناسيوس تستدعي منَّا الاهتمام:

"الجسد الذي اتخذه، هو الذي يُمسح فيه ومنه".

(ضد الأريوسيين ١: ٤٧).

ولولا اتحاد لاهوت الابن الكلمة بالجسد لَمَا حدثت المسحة ولَتعذَّر أن تصل إلينا، لأن:

"التقديس الذي تم في الرب كإنسان، يصل إلى جميع البشر به".

(ضد الأريوسيين ١: ٤٧).

فهو يصل **إلينا به،** مسحةً تنقل الإنسان في المسيح؛ لأن المسيح يسوع هو الابن الكلمة الذي:

"صار لأجلنا إنساناً، لكي يعيد خلقتنا (صياغتنا) نحن المائتين والزمانيين، ويجعلنا غير مائتين،

---

(١) راجع الترجمة العربية التي أصدرها المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة – الطبعة الثالثة ٢٠٠٢ – سلسلة نصوص آبائية رقم ٦٤ – ص ١١٥.

وبذلك ينقلنا إلى ملكوت السموات الأبدي".

(ضد الأريوسيين ١: ٤٨).

لقد نقل الربُ الإنسانَ من: الموت، والذل، والعبودية، ولكن **هذا النقل كان يتم فيه هو، أي يتم في ناسوته؛**

"لأن الإنسان كان في أشد الاحتياج إلى هذا؛

بسبب وضاعة الجسد وبسبب الموت".

(ضد الأريوسيين ١: ٤١).

لقد "مُجِّد الربُ لأجلنا"، ولاحظ قوة التعبير:

"لأننا في المسيح نفسه قد مُجِّدنا مجداً فائقاً،

مقامين من الأموات، وصاعدين إلى السموات".

(ضد الأريوسيين ١: ٤١).

لعل القارئ الذي درس المقالة الأولى ضد الأريوسيين قد لاحظ أن طقس فتح أبواب الهيكل مع الضجة التي تصاحب النداء: "من هو ملك المجد؟" في قداس عيد القيامة، أقول لعل القارئ لاحظ عبارات القديس أثناسيوس في الفقرة ٤١ حيث يقول:

"لقد مُجِّدنا في المسيح؛ لندخل أبواب السماء التي فتحها هو ذاته من أجلنا، حيث يقول الذين عاشوا في العهد القديم: "ارفعوا أيها الرؤساء أبوابكم، وارتفعي أيتها الأبواب الدهرية ليدخل ملك المجد" (مزمور ٢٤: ٢٧).

هنا أيضاً لم تكن الأبواب مغلقةً أمامه هو، إذ هو رب وخالق كل الأشياء، بل بسببنا كُتِبَ هذا الكلام، نحن الذين أُغلقت أمامنا أبواب الفردوس".

(ضد الأريوسيين ١: ٤١).

فإن كنا لا نحتفل ونُعيِّد لمجد الإنسان في يسوع المسيح الحي، فلماذا نقوم بهذا الطقس الذي لا يحتاجه الرب يسوع، بل نحتاجه نحن الذين لم يكن لنا باباً سمائياً

مفتوحاً؟[١].

تألُّه ناسوت الرب يسوع

لكل الهراطقة أجدادٌ وأحفاد، وأجداد هرطقة أوطاخي هم أقطاب الفلسفة اليونانية الذين احتقروا الجسد الإنساني وعاشوا في عالم ما فوق أو ما وراء الطبيعة. ولكن أحفاد أوطاخي يأتون عبر التاريخ من آنٍ لآخر لإزعاج الكنيسة، ومقاومة تجسد الرب. لقد أشرنا إلى تألُّه ناسوت الرب يسوع؛ لأنه "الجسد الحي" الواهب الحياة للعالم (يوحنا ٦: ٥١)، وهو ما سبق وأشرنا إليه من قبل[٢].

"لأن كلمة الله صار إنساناً؛ لكي يؤلِّهنا نحن".

(الرسالة الأولى إلى سرابيون: ٢٤)[٣].

وحسب الفقرة ٩ – ١٠ في الرسالة إلى ابكتيتوس، نجد أن أحد جوانب تألُّه الإنسانية هو نعمة الخلود، وبدقة القديس أثناسيوس المعهودة، يقول:

"إن الجسد الحي حياةً أرضيةً، صار روحانياً بعد أن كان قد خُلق من تراب الأرض،
ولكنه الآن يستطيع، بعد أن صار روحانياً (خالداً)،
أن يدخل من أبواب السماء".

(الرسالة إلى ابكتيتوس ٩ مجلد ٢٦: ١٠٦٥).

---

(١) راجع تجسد الكلمة ٢٥: ٦: "وإذ رفع هكذا طهر الهواء من خبث الشيطان، ومن خبث الأرواح النجسة بجميع أنواعها، كما يقول: "رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء"، وفتح طريقاً جديداً للصعود إلى السماء، كما يقول مرة أخرى "ارفعوا أيها الرؤساء أبوابكم وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات" لأنه لم يكن "الكلمة" نفسه هو المحتاج لانفتاح الأبواب، إذ هو رب الكل، كما أنه لم يكن أي شيء من خليقته مغلقاً في وجه صانعه، بل نحن الذين كنا في حاجة إلى ذلك، نحن الذين حملنا في جسده. لأنه كما قدم جسده للموت عن الجميع، هكذا بجسده أيضاً أعد الطريق للصعود إلى السموات مرة أخرى".

(٢) راجع عند القديس أثناسيوس: الرد على الأريوسيين ٢: ٧٠ – ٣: ٣٨ – تجسد الكلمة ٥٤: ٣.

(٣) راجع أيضاً دراستنا عن الشركة في الطبيعة الإلهية، منشورة على موقع www.coptology.com

تدبير الخلاص حسب "تجسُّد الكلمة":

كان من الضروري أن نعود إلى الرد على الأريوسيين حتى نستطيع أن نكوِّن أيقونةً عقائديةً كاملةً. وكما ذكرنا سابقاً، كانت الأريوسية بمثابة تحدٍّ وإنكارٍ لأساس المسيحية، وهو الثالوث، وإلوهية المخلص، وأسباب التجسد، وحاجة الإنسان إلى المخلص. هذه كلها دائرةٌ، مركزها إلوهية الكلمة ابن الله المتجسد.

ولو حاول القارئ أن يحصر عدد المرات التي استخدم فيها القديس أثناسيوس تعبير "لأجلنا" لوجد أنها تزيد على ١٣٥ مرة في المقالات الأربع ضد الأريوسيين. وحسب كتاب تجسد الكلمة دون حصر دقيق – مع الالتزام بالترجمة العربية للدكتور جوزيف فلتس، وهي ترجمةٌ جيدة جداً – نجد أن "المحبة الإلهية"، "إلوهية الرب يسوع" هي التعبيرات التي تضع إطار الخلاص ومحوره.

* "ظهر لنا في جسد بشري لأجل خلاصنا".
(تجسد الكلمة ١: ٣).

* "نزوله إلينا كان بسببنا".
(تجسد الكلمة ٤: ١).

* "مات لأجل الجميع .. مات لأجلنا وقام".
(تجسد الكلمة ١٠: ٢).

* "لأجل (استعلان الله) ولو ظهر كإنسان ومات ...
فإنه يستردهم (البشر)، ويعلِّمهم عن أبيه الحقيقي".
(تجسد الكلمة ٥: ٧).

وعن السبب الذي من أجله يكتب أثناسيوس نفسه، يقول إنه يكتب عن:

"الهدف الذي من أجله جاء وعاش بيننا بالجسد".
(تجسد الكلمة ١٩: ٤).

ولذلك، فإن عبارة: "لأجل الجميع" تؤكد انتصار المحبة الإلهية، هذه المحبة حوَّلت

الجسد إلى "عدم الموت" و"عدم التألم" (تجسد الكلمة ٢٦: ١)، وإبادة الموت هنا هي انتصار الصليب.

– ٤ –

دعامات التسليم الرسولي الواحد
عند القديس إيرينيؤس، والقديس أثناسيوس

إن ما قدَّمناه سابقاً يؤكد أن التعليم الصحيح يرتكز على الدعامات القوية الآتية:

أولاً: تدبير الخلاص سَبَقَ السقوط، وتشبيه العمل الإلهي بالمهندس الذي يبني بيتاً ويخطط طريقة إصلاحه وتجديده، هو أبلغ ما قُدِّم في كتابات القرن الرابع.

ثانياً: إن ضعف الخليقة استدعى تعطف ومحبة الله وعدم التخلي عنها.

ثالثاً: كان الاستعلان الإلهي في الجسد هو استعلان تدبير الله السابق على خلق آدم.

إذن، هل كان التجسد علاجاً لسقوط آدم؟

الجواب بكل تأكيد: لا، بل كان التجسد أكبر من العلاج، فقد كان استعلاناً لمحبة الله التي جدَّدت الطبيعة الإنسانية، وصار التجديدُ حقيقةً في شخص يسوع المسيح نفسه. هنا يجب أن يتوقف الفكر، فلا يسأل أسئلة نظرية عقلية، مثل: هل كان المسيح ابن الله سيتجسد لو لم يخطئ آدم؟ والسؤال افتراضي ونظري، ولكن الواقع الحقيقي هو: أن آدم سقط، وجاء الخلاص الذي كان في خطة التدبير.

إن الابتعاد عن شطحات الفكر أجدى لنا؛ لأن محور الخلاص كله هو محبة الله. وعندما نؤكِّد المحبة، فإننا نجعل المحبة أكبر وأعظم من أن تكون رد فعل لخطية الإنسان،.فلم يكن سقوط آدم هو الذي حرَّك المحبة الإلهية، بل كان الكلمة الخالق الذي

وهَبَ صورته للإنسان هو الذي تحرَّك؛ لئلا تفنى الصورة الإلهية وتتلاشى وتعود إلى العدم.